بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الخواطر

سيجد القارئ الكريم في صفحات هذا الكتاب خواطر منوعةً كتبت في مواقف مختلفة، ولكنه لن يعدم أن يرى خيطاً يربط بينها ويصل بدايتها بنهايتها..

إنها خواطر إنسان مسلم يعيش في هذا العصر، عصر الذرَّة والفضاء، عصر الطائرة والصاروخ، والمدفع والرشَّاش، عصر وسائل الاتصال الحديثة التي تلملم أطراف الكرة الأرضية، فترى في شرقها ما يجري في غربها، وترى في جنوبها ما يحدث في شمالها.

عصر السياسة التي تنقض بالشمال ما تبرمه اليمين، والتي تفتح أمامك نافذةً مّا لتشغلك عن مئات النوافذ التي تتسلَّل منها إلى كيانك!

نعم هذه الخواطر التي يحملها هذا الكتاب متناثرة متنوعة، ولكنها تتفق في أنَّها خرجت من قلبٍ واحد، حاملةً معها مشاعره وأشواقه، وأفراحه وأحزانه، وتتفق في أنها تمزج بين هموم خاصةٍ وهمومٍ عامة، هموم فردٍ وهموم أمةٍ، وتتفق

أخيراً في أنها تهدف إلى غايةٍ واحدةٍ؛ وهي أن يبقى لأمة الإسلام تميُّزها الحقيقي المتمثل في «الرؤية الإسلامية» لكل ما يجري في هذه انحياة.

هذه بعض خواطري أقدمها بين يدي إخوتي وأخواتي القراء لعلهم يجدون فيها ـ أو في بعضها ـ ما يعوّضون به جزءاً من وقتهم الذي سيقضونه في قراءتها.

والله المستعان

*****

obeikandl.com

بلادنا ... والتميُّز

كل بلدٍ في العالم يسعى إلى التميُّز ... الانفراد بشيءٍ يذكربه في العالمين... والذي يتتبع خطوات الأمم والشعوب يجدها تسعى إلى هذا التميُّز، وتلحُّ عليه، وتجعل منه هدفاً أسما من أهدافها العُليا التي تضعها نصب عينيها.

وفي عالم اليوم نجد أمم الأرض أشد حرصاً على التميُّز... وأكثر عملاً له، ودأباً عليه... بل إنَّ حروباً قد تنشب بين بعض دول العالم من أجل هذا التميُّز، مع كل ما يتبع ذلك من ظلم وعسفٍ... واستبدادٍ وأثرةٍ لا مبرِّر لها إلا السعي إلى التميُّز.

وإذا استعرضنا تاريخ الأمم القديمة وجدنا لكل أمةٍ منها ما يميِّزها عن الأخرى.

والذي يلفت نظر المتابع الواعي لمسيرة الأ مم عبر الأزمان المختلفة منذ القدم، أنَّ الأمة التي تحاول أن تقلِّد غيرها في كلِّ شيء بما يميِّزها، هي التي تخسر الرِّهان، وتنتهي إلى ضياع.

والأمة الإسلامية جاء تميزها عن غيرها من الأمم فريداً

وعظيماً لأنه منحة من الله لها... حيث اختارها لحمل رسالةٍ عظيمة، واختار منها أفضل خلقه وخير أنبيائه عليه وعليهم الصلاة والسلام، وأنزل عليها قرآناً عربياً مبيناً متميِّزاً في كل شيء.. في لفظه ومعناه .. وما اشتمل عليه من أخبار الماضي، وأنباء المستقبل... ثم ختم الله برسولها الرسل، وبقرآنها كتب السماء، وجعلها هي خاتمة الأمم.. وحمَّلها بذلك عبء الرسالة الخاتمة.

وبهذا تهيَّأ للأمة الإسلامية من التميُّز ما لم يتهيَّأ لغيرها... وهو أمرٌ أدركه سلف هذه الأمة خير إدراك، فجاءت أقوالهم وأعمالهم منسجمةً معه تمام الانسجام، وكيف لا يصنعون ذلك وهم يرون أنفسهم بالإسلام ينتقلون من مرحلة الشتات إلى التجمُّع، ومن الخلاف إلى الوفاق، ومن الانهزام أمام الأمم الأخرى - فارس، والروم - إلى السيادة عليها، لا بالسيف والاعتساف ولكن بالعقيدة التي ميَّزتْهم عن غيرهم.

لذلك كانت كلمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي وجهها إلى خالد بن الوليد يوم كانا يتحاوران أمام بعض الصحابة في شأن عزل خالد عن قيادة الجيوش في الشام، كانت كلمة الفاروق دليلاً على وعيه الكبير بمعنى التميُّز، حيث قال:

«دعني من قولك يا خالد، والله لقد كان غاية الشرف عند أحدنا أن يكون حاجباً على باب كسرى لولا أن أعزنا الله بالإسلام...

أرأيتم كيف يكون الإيمان بالتميُّز الذي جاء به الإسلام لأمة محمد؟ وما الذي غيَّر حال العرب حتى انتقلوا من مرحلة الطموح إلى باب كسرى في جاهليتهم ليصلوا إلى مرحلة امتلاك إيوان كسرى في إسلامهم؟ هل غيَّرت حالهم الماديات والمظاهر الزائفة التي كانت عند الفرس والروم؟ أم غيَّرتها معالم الظلم والعسف التي عرف بها ملوك ذلك الزمان؟ كلا.. إنما غيَّر حالهم الإسلام الذي به تميَّزوا.

ولهذا فقد رأينا وصايا خلفاء الإسلام إلى قوَّاد جيوشهم تتفق جميعاً على الإشارة إلى التميُّز... ومن يَعُد إلى كتب التاريخ والمغازي فإنه سيجد كيف تتفق رسائل الخلفاء - رضي الله عنهم - إلى قوَّادهم على هذا الأمر؛ حيث يوصون جيوشهم بالمحافظة على تميُّزهم الإسلامي وعدم الوقوع في المعاصي، فإنّ ذلك سبب من أسباب الهزيمة، ذلك لأن جيوش الأعداء تفوق جيوش المسلمين عدداً وعدةً وتنظيماً، وإنما يتميز الجيش الإسلامي بدينه والتزامه، فإذا فرَّط في هذا فقد صار أضعف من العدوِّ وهنا تحصل الهزيمة، وعلى هذا المبدأ

صارت الأمة الإسلامية تنشر العدل والخير في الآفاق، وتهزم كلَّ من يحاول أن يحجب نور الإيمان عن العالمين.

وباستقرائنا لتاريخ فترات الضعف والهزيمة في حياة الأمة الإسلامية نصل إلى يقين بأن السبب في ذلك إنما هو تفريط هذه الأمة فيما تميَّزت به، وتقصيرها فيه تقصيراً يهز شخصيتها أمام عدوِّها الذي يعرف تماماً أن الإسلام هو العامل الأهمُّ في بناء شخصيتها.

ولهذا فإنَّ صلاح الدين الأيوبي ـ مثلاً ـ كان واعياً كلَّ الوعي بدوره الإصلاحي الذي سبق تحرُّكه العسكري الناجح في معركة حطين الشهيرة.

فصلاح الدين قام بحركة تصحيح كبيرة في بلاد الإسلام التي كانت تحت حكمه، حيث فتح المدارس السليمة من الانحراف الديني والفكري، واختار علماء أهل السنة والجماعة الصادقين ليقوموا بالتدريس فيها، وبذل جهداً كبيراً في توحيد المبدأ، وإزالة آثار المذهب الفاطمي من نفوس الناس.

وبعد أن رأى المسلمين يعودون إلى تميُّزهم بالإسلام الصحيح غير المحرَّف توجَّه بهم إلى فلسطين وقضى بهم على الصليبيين في معركة من أكبر معارك التاريخ، ولسان حاله

يردِّد ما سبق أن ردَّده عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نحن قوم أعزَّنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة في غيره أذلَّنا الله» وهو قول حكيم يجرى على ألسنتنا كثيراً.

إذن فنحن أمام حقيقةٍ ثابتة تؤكد لنا أن تميُّز الأمة الإسلامية إنما هو بدينها، مهما ظهر لها من بريقٍ يعشي البصر، من مظاهر التميُّز المادي «الزائف» في هذا العصر المائج.

وهنا ننتقل إلى كلمات مضيئة وردت في الكتاب الصغير حجماً الكبير معنىً الذي ألفَّه الشيخ الفاضل أبو الحسن الندوي بعد أن عاد من جولةٍ له إلى أمريكا ووجّه خطاباً حكيماً إلى العالم الإسلامي بعنوان: «أحاديث من أمريكا».

كلمات لخَّص بها الكاتب ما أشرنا إليه من معنى التميُّز في حياة الأمة الإسلامية، فأشار إلى أن أمريكا تنهار من داخلها.. أخلاقياً، وروحياً، وفكرياً.. كما ذكر أن ذلك لا يعني أن مثلها في ضخامتها وسعة نفوذها سيهوي بين يوم وليلة، ولكنها تسير إلى الهاوية.. ثم انعطف بحديثه إلى الأمة الإسلامية يذكرها بتميُّزها الروحي، ويحذِّرها من نتيجة الانشغال بملاحقة أعدائنا في المجالات المادية ملاحقة تتسينا الأساس الذي تميَّزنا به، ولا يمكن أن نتميَّز بغيره.

وأشار إلى أهمية الوعي بهذه النقطة عند المسلمين اليوم كما وعاها أسلافهم، فإذا كان العدو يملك زمام الماديات في هذا الزمن، وهو حريص كل الحرص على بقائها في يده، فإن الأمة الإسلامية تملك زمام الروح، والمادة بدون الروح هباء، نعم.. هباء وفراغ قاتل، وإلا لما رأينا رجالاً في أوروبا وأمريكا لهم باع طويل في مجال العلم المادي.. يلقون بأيديهم في تخاذل وانكسار بين يدي ساحرٍ أو عرَّافة.. هرباً من الفراغ الروحي القاتل.

وهنا ننتقل نقلةً أخرى... نشير إلى التميُّز في بلادنا.. في هذه الجزيرة المباركة التي انبثق من أرضها نور الإسلام.

هذه البلاد تميَّزت عن سواها من بلاد الدنيا منذ أن ترك فيها إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل وأمَّه في أرض غير ذي زرع، حيث تفجَّرت في أرضها مياه «زمزم»، وبنيت فيها الكعبة، البيت الحرام مثابة للناس وأمناً.

ثم ميَّزها الله بخاتم الأنبياء ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام ـ وبالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وجعلها أمةً وسطاً فهي خير أمة أخرجت للناس.

هذه هي الميزة الكبرى لبلادنا التي لا تضاهيها فيها أمة من الأمم الأخرى.

وإن أنس شيئاً فلن أنسى ذلك الشعور الغامر من إخوة الإسلام في الجزائر أثناء انعقاد الأسبوع الثقافي السعودي هناك عام ١٤٠٢هـ.. حيث وزع الوفد السعودي ماء زمزم على الناس في حفل الافتتاح... حينها التفت إليَّ شاب جزائري والدموع تترقرق في عينيه قائلاً: «هذا والله الشرف الذي ما بعده شرف أن تكون جزيرتكم مهوى أفئدة المسلمين في كل مكان».

وهذا التميُّز العظيم لبلادنا يجعل مسؤولياتها كبيرةً جداً في الحفاظ عليه قولاً وعملاً... فهو ركن ركين يحفظ كيانها ويرفع مكانتها في العالمين.

وإنَّ بلداً هذه مكانته الروحية، وهذا تميُّزه لجدير أن يخضع كلَّ وسيلة من وسائل الحياة المادية لخدمة هذه المكانة والحفاظ على هذا التميُّز.

لقد كثرت في الآونة الأخيرة اتهامات الحاقدين على أمتنا وديننا وعلى بلادنا بالذات... فكثيراً ما نسمع مصطلحات «الانغلاق»، و«الأحادية»، و«التزمُّت»، و«التطرُّف الديني»، تطلق هذه المصطلحات بطريقة عجيبة، فيها خلط كبير بين الحق والباطل، وفيها محاولة واضحة لشنِّ حرب نفسية ضدَّ المسلمين الملتزمين، الذين يحافظون «على تميُّزهم» بدينهم..

ونحن هنا أجدر الناس أن نعي تماماً حقيقة دعاوى المبطلين، وأن نسعى جاهدين إلى التخلُّص من «أوهام المدنيَّة المعاصرة» بكل ما فيها من.. تحلُّل وانحراف عن جادة السبيل.

نحن أمة يميِّزها دينها... فهل لنا أن نستوعب ذلك حتى لا تضل بنا السبل، وحتى لا يبلغ أعداؤنا ما يريدون؟ أرجو ذلك .

*****

obeikandl.com

زهور بستاننا أجمل

١٤٠٦/٦/١٤هـ

إذا رأيت من بني الإنسان رجلاً له بستانٌ جميل نضير... تزاحمت فيه الأزاهير حتى غدت تهزأ كل زهرة بجارتها نضارةً وجمالاً.. وتعانقت فيه الأشجارُ عناق حبٍ وعشقٍ، وكانت تلك الأشجار تنتج في ذلك البستان روائع الثمار.. فلا أشهى من ثماره ولا ألذَّ.. ثم إنك رأيت صاحب ذلك البستان ينظر إلى بستان جاره نظرة الطامع فيه وليس في بستان هذا الجار إلا ذوابل الزهور، وليس فيه إلاَّ يابس الشجر.. فإنك حينئذٍ لا تتوانى عن وصف صاحب البستان النضير بالطمع والجشع والغباء.. ثم تستجير بالله من حاله.. وتستعيذ بربك من ضلاله.

عفواً ـ قارئي الكريم ـ هذه صورة لحالةٍ فردية، ولكنّها تمثِّل حالة أعمَّ منها وأشمل.. فلربما كنت أنا وأنت كصاحب ذلك البستان من حيث لا ندري.. وإليك البيان:

عندما تتابع كثيراً مما يكتبه الكاتبون من أبناء العرب والمسلمين ينالك مما تجد في كتاباتهم عجبٌ. ولأن الصحافة تمثِّل الميدان الفسيح للأقلام فإنَّ عجبك ينصرف إليها.. فترى

في بعض ما تسطِّره أقلام بعض كتابها ما يعطيك شبيهاً بتلك الصورة التي بدأت بها هذه المقالة.

كاتب يسلُّ قلمه ليكتب عن الغشّ فتراه يأخذ أمثلة على رفض الغشّ من تعامل تاجر في أمريكا وآخر في أوروبا.. ويدعو الناس هنا إلى احتذاء هذا المثل الرائع من أمثلة الأمانة.. وهو في ذلك مثل صاحب البستان النضير.. يترك زهور بستانه.. ويطمع في زهور بستان جاره..

ولو التفت صاحب هذا القلم.. إلى تاريخه.. أو إلى واقع التعامل بين كثير من أهل وطنه وملَّته لرأى بدلاً عن المثل الواحد ألف مثل.. وبدلاً عن القصة ألْفَ قصّة..

إنني لا أرى مثلاً أروع ولا أجمل على هذا الجانب ـ أعني جانب الأمانة ورفض الغش ـ من قصة تلك الفتاة المسلمة زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي قالت لها أمها: اخلطي اللبن بالماء! فقالت الفتاة: إن أمير المؤمنين نهى عن ذلك، فقالت الأم: وأين نحن من أمير المؤمنين إنه لا يرانا.. فقالت الفتاة: ولكن الله يرانا!

«الله يرانا»، هنا تأتي روعة هذا المثل.. بل نضارة هذه الزهرة في بستاننا. التاجر الأمريكي الذي رفض الغش.. رفضه لمصلحة عاجلة.. ولربما رفض الغشَّ مرة ولكنه غشَّ

ألف مرَّة..أما الفتاة المسلمة فهي ترفض الغشَّ أبداً لأن الله يراها.. يا له من معنىً يصفع التعامل البشريَّ الملمَّع في هذا الزمن، ويا لها من أمانة تنطلق من داخل النفس لا من خارجها.

أرأيت ـ قارئي الكريم ـ كيف نسعى إلى بساتين غيرنا وليس فيها من الأزهار والأشجار إلا ما يشبه زهور وأشجار الزينة التي نراها تباع في الأسواق... لا حياة فيها ولا رواء؟ ثم أرأيت كيف نحكم على أنفسنا بالغباء والإهمال من حيث لا ندري؟

أحدهم كتب ذاتَ مرَّة عن «الذَّوق الرفيع» ومدى مراعاته في الغرب وأخذ يضرب أمثلة بطريقة الأكل.. وتنظيم المنزل.. وتحسين الحدائق.. وغير ذلك من الأمثلة التي أتعب نفسه في سردها، وهو بذلك قد استبدل الذي هو أدني بالذي هو خير.. فقد كان جديراً به أن يلتفت إلى «الذوق الإسلامي الرفيع» في كل شيء بعيداً عن تصيُّده في حياة الغرب أو الشرق.. وما أكثر أمثلة الذوق عند أسلافنا وما أروعها.

آداب الجلوس في الإسلام.. آداب الضيافة.. حسن الجوار.. آداب الأكل.. كل ذلك يعطينا أمثلة رائعة على سموِّ الذوق.

يقول الرسول ﷺ: «**لا يمشين أحدكم في نعلين مختلفين ولا في نعل واحدة.. بل لينعلهما جميعاً أو ليُحفهما جميعاً..**» أو كما قال ﷺ.

انظر إلى هذه المراعاة للذوق الإنساني.. إن الإنسان يُنتقد عندما يلبس نعلين مختلفين.. ويُنتقَد عندما يلبس حذاءً واحدةً في إحدى رجليه، بل ربما وصفه الناس بالجنون.. وفي النهي عن هذا ذوق وأيُّ ذوق.. ونجد سموَّ الذوق في وصف جبريل عليه السلام عندما جاء إلى رسول الله ﷺ وعنده أصحابه وسأله عن الساعة.. حيث يقول الحديث: «فطلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، ليس عليه آثار السفر». فتأمل هذا التناسق الرائع الذي وصف به جبريل في هذا الحديث..

في زمن عمر بن الخطاب شكتْ امرأةٌ من زوجها إهمالاً في نظافته ومظهره.. فزجره عمر وقال: تزيَّنوا للنساء فإنهنَّ يحببن منكم ما تحبون منهن.

ورسول الله ﷺ يقول للغلام الذي طاشت يده في الصحفة والصحابة يأكلون: «ياغلام سمِّ الله، وكلْ مما يليك».. والأمثلة على الذوق الرفيع في تراثنا كثيرة لا يمكن حصرها.. فما الذي يجعلنا نفتتن بما عند غيرنا وننسى ما عندنا؟

إن عدم مراعاة الذوق من كثير من المسلمين لا يعني أبداً أنَّ ديننا يشكو نقصاً في هذا الجانب.. وإنما يكمن النقص في

نفوس البشر. ويندرج هذا على كثير من جوانب الحياة البشرية.

إن المنطلق الذي ينطلق منه المسلم في مراعاة جوانب الخير في حياته.. يظلُّ منطلقاً أصيلا لا تدعو إليه منفعة دنيوية عاجلة.. وهذا هو الفارق الكبير بين أفعال الخير عندنا، وهذه الأفعال عند غيرنا.

الرجل الغربي.. يهتم بنظافة أكله خوفاً على صحته ومراعاة لنفسه فقط، أما المسلم فإنه ـ قبل ذلك ـ يهتم بالنظافة لأنها تشكل سنَّة من سنن دينه حثَّ عليها الرسول ودعا إليها الإسلام.. فهو يؤدي بها واجباً دينياً ومن خلال أدائه لهذا الواجب تحصل المنفعة الدنيوية.

وهذا الفارق كبير وجوهري يجب ألا يغفل عنه المسلم.. إن حسن الجوار أمرٌ يدعو إليه الناس جميعاً. ولو جاورت رجلاً في الغرب جواراً حسناً لبادلك بمثل ذلك.. ولكنك لو أسأت إليه مرة لما تحمَّل منك الإساءة مهما كانت صغيرة.. وإن تحمَّلها مرةً فلن يتحمَّلها أخرى.. وهذا ما يعطينا دليلاً على ضابط «المصلحة الشخصية» في التعامل بين الناس هناك.. لكنَّ الأمر يختلف تماماً عندنا نحن المسلمين.

فحسن الجوار واجب أوصى به الله سبحانه ورسوله الكريم.. «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنَّه سيورِّثه**»، «**ما آمن، ما آمن، ما آمن. قالوا: مَنْ يا رسول الله؟ قال: من بات شبعانَ وجاره جائع**»، وقد تجسَّد هذا في فعل الرسول ﷺ وفعل سلفنا الصالح.. فقصته مع جاره اليهودي الذي كان يؤذيه معروفة.. وقصة أحمد بن حنبل مع جاره النصراني الذي كان يزعجه بصياحه إذا سكر في الليل معروفة.. وبين القصتين فترة زمنية طويلة؛ ولكنَّ الجوهَر الذي يكمن فيهما واحد.. ذلك لأنهما ينطلقان من مشكاة النبوَّةِ.

ولعلَّ هذا الأمر يندرج على الفكر والثقافة والأدب من جانبٍ آخر.. فكم من مفكري المسلمين ومثقفيهم وأدبائهم من يتابع مذاهب الغرب والشرق شغفاً بها وتعلُّقا بجديدها، وكأن الجديد لا يأتي إلا من هناك، إنها ازدواجية أخرى يقع فيها كثير من أدباء العالم الإسلامي.. تذكِّرنا بطمع صاحب البستان النضير وجشعه وغبائه..

كل الجوانب الفنية التي ننشدها بصلفٍ وانجراف عند غيرنا يمكن أن تتبع من أدبنا.. ولكنّه الافتتان.. والسعي وراء البريق الإعلامي والصحفي.. حتى ولو كان هذا البريق على حساب القيم الفكرية والأدبية.

التأمل في آفاق الكون الواسعة..

الإيحاء بالفكرة والطرح التصويري لها..

التحليق في أجواء الخيال والإبداع..

روح القصة المؤثرة..

الكلمات التي تنبثق منها المعاني جديدةً جميلة

كلُّ ذلك يمكن أن يصل إليه الأديب العربي انطلاقا من قاعدته الأدبية القوية.. مع إمكانية الإفادة من الآداب الأخرى.

إن النظرة الفاحصة المتأمِّلة إلى كتاب الله الكريم وسنة الرسول ﷺ تعطينا أكبر دليل على الاهتمام بجانب التصوير الفني.. والاعتماد على ظلال الكلمة العربية وإيحاءاتها.. وهذا ما يؤكد لنا الخطأ الذي وقع فيه الأدب العربي بعد عصر صدر الإسلام من الابتعاد عن هذا الجانب الفني الذي يُوحي به أسلوب القرآن والحديث النبوي، ولعلَّ نقائض جرير والفرزدق تعطينا المثل الواضح على ذلك الابتعاد عن جوانب التأمل والإيحاء والتصوير.. مما جرف الشعر العربي إلى طرق ملتوية عادت به إلى أسلوب الشعر الجاهلي، وحرمته قروناً طويلة من «روعة الأسلوب القرآني».

الذي دفعنا إلى هذه الانعطافة هو الرغبة في تأكيد ما ذهبنا إليه من أنَّ عوامل التجديد كامنة في لغتنا وأدبنا.. وأنه من الخطل أن نبحث عنها عند غيرنا..

إن التجديد غير التمرُّد.. المتمرِّد يأتي بجديد ولكنه جديد يجرفه ويجرف غيره.. أما المجدِّد الواعي ـ في مجال الأدب ـ فهو الذي يفجِّر طاقات الفن من خلال أصالته الأدبية.. وهذا ما فعله أبو تمام في شعره مما لا يخفى على المتتبعين

إنَّ البذرة التي يبذرها الأديب الغربي في أرضية أدبه بذرة ملائمة لتلك الأرضية ولأجوائها.. ولكنها لو نقلت إلى أرضية أدبنا لماتت.

وإن بستاننا الأدبي لمليء بالأشجار الباسقة وبالأزهار.. وإنَّ في تربته بذوراً لو وَجَدت من يحسن التقاطها وبذرها بطريقة جديدة لأثمرت ثمراً طيباً بعيداً عن تلك الثمار التي نحاول أن نقتطفها من بساتين روزنتال، ومكليش.. وجكوبسون، وإليوت وغيرهم.

ولو راجعنا أنفسنا في هذا الجانب.. لما وجدنا فينا من يقول: «الحداثة في الشعر إبداع وخروج به على ما سلف» بهذا التعميم والتعتيم. ولما وجدنا من يقول: «الشعر فن.. والفن لا غاية له غير التعبير الجميل عن الذات في لحظة الكشف والرؤيا»، ولما وجدنا من يقول: «حركة الشعر العربي الحديث حركة ثورية» و«القصيدة تنطلق من اللاوعي»، وغير ذلك من

الأقوال التي تخرج بكلمة «التجديد» عن معناها الحقيقي وتسلك بها طرقاً شتَّى.

إنَّ الحديقة العظيمة التي أنشأتها دعوة الإسلام الخالدة، وأنبتت فيها جذور الخير في كل مجالات الحياة الفكرية والاجتماعية والأدبية لجديرة منا بكل اهتمامٍ وتركيز حتى ننطلق منها إلى استنبات أزهارٍ وأشجار لها ثمارها الحلوة.. وأذواقها المتجدِّدة، ولها جذورها الراسخة.

وقفة:

يقول الدكتور عبَّاس محجوب في كتابه «مشكلات الشباب. الحلول المطروحة. والحل الإسلامي» وهو الكتاب الحادي عشر من كتاب الأمة:

«يقتضي الإنصاف أن نقرر أنَّ لكل إنسانٍ الحق في مناقشة قضية المرأة، ولكن ليس لأحدٍ الحق أن يناقش القضية خارج الأُطر العلمية التي تعطي المناقشة قيمة، وتجعل لها هدفاً، وتنطلق من المسلَّمات الأساسية التي تعالج من خلالها القضايا الاجتماعية وفق ثقافة الأمة ومكوِّناتها الأصلية وأهدافها في الحياة».

بيت من الشعر:

ما كلُّ مَنْ صفَّقت كفَّاه محتفلاً ولا على كلِّ غُصنٍ يطلع الثَّمَرُ

مركبة الثقافة .. إلى أين تتجه؟؟

«خدمة الوطن .. وكلمة الحق»...

هذه الشجرة العريقة التي توغل في أعماق تربة التاريخ... وتستقي جذورها من أنهار العزة والكرامة... هذه الشجرة العريقة التي تفرّعت غصونها وصافحت فروعها السامقة عنان السماء... هذه الشجرة التي ثبتتْ في وجه عواصف الفتن وأعاصير الضلال... وأعادت جيوش اليأس مهزومة كليلة، وصبرتْ على لسعات الشتاء.. ولهيب القيظ، وظلَّت كذلك؛ تزداد في تربة التاريخ عمقاً، وفي سماء المجد سموقاً .. حتى إذا فتح لها الأمل نوافذه، ومهَّد لها المجد طرقه، نظرت إلى الآفاق من حولها نظرة ثقةٍ وحبّ، وهزَّتْ فروعها فتناثرتْ منها أشهى ثمار الخير.

هذه الشجرة العريقة (الجزيرة العربية)، الأرض التي تضمُّ بين جوانحها نوراً ميَّزها الله به، وجعلها بإشراقته سيِّدة الدنيا، وعروق الكون.

إنها تستحق من قلوبنا أصفى المشاعر، ومن عقولنا أسمى أنواع التفكير، ومن سواعدنا أصدق عمل وأخلصه للرقيِّ بها.. وهي الآن لا تريد منَّا ذلك وحده.. بل تطلب منا قبله أن نؤمن

بالعقيدة التي رفعتها أوَّلاً، ثم بصدق القول والعمل، وصدق النصح ثانياً.

عندما نحب الوطن.. فإننا لا نحب ترابه فقط.. ولا نحب أرضه وسماءه فقط، ولكننا نحب عراقته.. ونحب عقيدة الإسلام التي بزغ نورها في أرضه، وانطلقت مواكب الدعوة إليها من رحابه، ولا بد أن تتعانق هذه المعاني في قلوبنا في ترتيب لا يقبل الخلل، حب العقيدة الإسلامية، إيماناً بالله وكتبه ورسله، ثم حب الأرض التي يتحقق لنا فيها تطبيق ما تأمر به تلك العقيدة حباً يجعلنا نخدم .. وندافع.. بل ونستميت في سبيل الحماية والدِّفاع. خدمة الوطن ليست كلاماً ينشر، ولا شعراً ينظم، ولا خطباً تدبَّج وتلقى في المناسبات..

خدمة الوطن.. حبٌّ له، وسعي إلى ما ينفع أهله، ويحقِّق له شخصيته، ويحفظ له كيانه، وذلك كله مرتبط عندنا بعقيدة الإسلام التي يقوم وطننا على أسسٍ راسخةٍ منها.. هذه أمور لا مجال لإنكارها أو التشكيك فيها.. بل هي من أوجب واجبات المسلم نحو دينه ووطنه وأمته، فهل يدرك ذلك بعض المثقفين؟

*****

قضية تستحق النقاش ...

١٤٠٤/١/١٧هـ

كما تحتاج الأرض إلى الغيث من السماء، وكما يحتاج البلبل إلى ضياء الفجر ليبعث شدوه الجميل، وكما يحتاج القلب الحزين إلى لمسة «حانية» تبعث فيه الفرحة والهناء، كذلك تحتاج أمتنا إلى زادها الأول وغذائها «الإلهي» العظيم «القرآن الكريم» ليبعث فيها الحياة والحركة، وليبني شخصيتها القوية الصامدة.

هكذا إذن؟

فلماذا لا تحرص الأمة على هذا الزاد «الإلهي»؟ وإذا كانت حريصة عليه فما انداعي إلى توجيه هذه الكلمات؟ ماذا نقول؟ وبماذا نجيب؟

إن نظرة فاحصة إلى واقع الأمة الإسلامية اليوم توحي بأن بعداً مقصوداً أو غير مقصود عن فهم كتاب الله وعن تدبره تدبراً صادقاً.. وعن وعيه وعياً ينقله من حيز القول إلى حيز العمل، ومن جانب النظرية إلى جانب التطبيق، أقول: إن تلك النظرة توحي بأن هذا البعد عن كتاب الله يسري في أوصال هذه الأمة بصورة تبعث في نفوس الحريصين على مستقبلها كثيراً من المخاوف.

وعلى النطاق المحلي عندنا هنا في المملكة العربية السعودية يشعر المتتبع لحركة التعليم بتطور كبير في وسائله، وبتشجيع كبير أيضاً من الدولة للأجيال النائشة لإتاحة فرص التعليم أمامهم، مما جعل القفزة في مجال التعليم قفزة كبيرة تستحق الإعجاب.

ولكن المتتبع لحركة التعليم عندما ينظر إلى المستوى العلمي.. وخاصة مجال العلوم الدينية يقف قليلاً... ويعيد حساباته، ويتساءل:

أيهما أهم، التعليم الدنيوي على اختلاف أنواعه، أم التعليم الديني؟

أليس من الواجب أن يكون تطورنا العلمي المدني مبنياً على أساس من القرآن الكريم؟

أحب أن أقف هنا قليلاً لأقول:

إن مناقشة هذا الموضوع تحتاج إلى متخصصين يديرونه بينهم على أسس موضوعية توصلهم إلى رأي علمي نزيه...

لكنني ـ هنا ـ سأشير إلى جزء من القضية، وهو أهم أجزائها على الإطلاق.. بل هو الأساس الذي يجب أن يحظى باهتمامنا ورعايتنا مهما كانت الظروف، ومهما تجددت وسائل

الحياة.. ذلك لأنه الروح، وكيف نتخيل إنساناً سوياً إيجابياً يعطي بلا روح؟

«القرآن الكريم» بما فيه من علوم عظيمة، وبما فيه من دعوة إلى التفكير السليم، وبما فيه من روح «متألقة» لا توجد في سواه، وبما فيه من بناء للشخصية الإسلامية القوية، وبما فيه من تقويم للألسنة، ومن ثروة لغوية لا تعدلها ثروة، هذا القرآن، ما موقفنا منه في رحلتنا التعليمية المعاصرة، وماذا عملنا في خططنا التعليمية لنجعل منه أساساً لشخصية أجيالنا، عليه يرتكزون في انطلاقتهم العلمية وبه يستنيرون في رحلتهم عبر دروب الحياة..؟.

ربما تبادر إلى ذهن أحد الأخوة القراء جواب سريع على هذا السؤال، وهو أن مدارس تحفيظ القرآن متوافرة - والحمد لله ـ وأقول: نعم هي كذلك، وهي خطوة مباركة رائعة تشكر عليها حكومتنا، ولكن ما أريده شيء آخر.. يتعلق بكل متعلم في بلادنا.. يتعلق بالطالب في مدرسته، وبالأستاذ في تخصصه، يتعلق بالمهندس والطبيب، وبصورة أشمل.. يتعلق بكل فرد منَّا..

مدارس تحفيظ القرآن خَرَّجَت وسَتُخَرِّج ـ إن شاء الله ـ أجيالاً من حافظي كتاب الله تعالى، سيؤدون دورهم المنتظر منهم في هذا الجانب.. ولكن الطلاب في المدارس العامة

والمدرسين كذلك، وكثيراً من المتخصصين في العلوم المختلفة.. كل هؤلاء يحتاجون إلى وقفة من حيث المستوى في قراءة القرآن واستيعاب معانيه العامة.. وعندما أقول المستوى فأنا أعني المستوى الأدنى المطلوب من المسلم في فهم كتاب الله.

أليس من الكارثة أن تستمع إلى أستاذ في المرحلة الثانوية وهو يقرأ سورة الهمزة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ «بضم الميم في همزة ولمزة» ثم يقول: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ «بضم اللام في كلمة ماله»؟

بل أليس من المؤلم حقاً أن تستمع إلى مهندس جامعي يقرأ سورة التكاثر فيقول في قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝١ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾. بمد اللام في لترون الأولى والثانية.. وقس على ذلك سواه..

ولعل خطورة الأمر تكمن في أن أصحاب التخصصات المختلفة راضون بهذا المستوى المتدني في فهم القرآن. بل ويدافعون عنه ويقول قائلهم بدون خجل ولا مبالاة: «لست متخصصاً في القرآن».. يا سبحان الله.. وهل تحتاج معرفة المسلم بالقرآن إلى تخصص...؟

أحدهم كان يشاركنا في مجلس فدار نقاش حول جمال

التشبيهات في كتاب الله، فجرت على لساني آية من القرآن الكريم حتى إذا وصلت إلى قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، فنظر إليَّ بعين مبحلقة وقال: «أعد الآية لو سمحت» فأعدتها عليه وفي نفسي أنه سيصحح لي خطأ وقعت فيه، وإذا به يقول ـ وليته ما قال ـ: «هل تصدق أنني لم أكن أتصور أن هذه آية من القرآن».. فضحك بعض الحاضرين – وشر البلية ما يضحك كما يقولون ... وبخاصة أن صاحبنا من الجامعيين.

والحقيقة أن هذا المستوى المؤلم يشكل خطورة كبيرة على شخصيتنا الإسلامية المتزنة القوية.. ولهذا فإن إعادة النظر في تصنيف المناهج في مدارسنا واجب علمي لا يجوز تجاهله.

فليس من العدل في شيء أن نجعل نصيب القرآن من الحصص في الأسبوع حصة واحدة، بينما تنال بعض العلوم الأخرى نصيب الأسد من الحصص، ولابد لي ـ هنا ـ من التنبيه إلى أن كلامي هذا لا يعني أبداً تجاهل العلوم الأخرى.. بل إن تجاهلها يعني ـ في نظري ـ أننا متخلفون ذهنياً عن استيعاب مقومات الحياة المختلفة.. ونحن ـ بإذن الله ـ أوعى من ذلك.

ولكن الذي نعنيه هو وجوب التركيز على أساس حياتنا وإلا فكيف نبني حياة بغير أساس؟

كلنا ندرك ضعف أبنائنا علمياً في هذا العصر.. على الرغم من توافر وسائل التعليم على اختلاف أصنافه وتخصصاته.. على عكس ما كان في الماضي، كما ندرك أن الطالب يتخرج ـ هذه الأيام ـ من الثانوية وهو لا يكاد يقيم أسلوبه لا شفهياً ولا كتابياً.. نعم ندرك هذا ونتحدث به في مجالسنا، ولو تأملنا هذا الموضوع لعلمنا أن التهاون في تعليم القرآن تعليماً يقوم على ركيزة من اهتمام وصدق نية هو السبب المباشر في ذلك الضعف.

أحدهم غضب وزمجر عندما رسب ابنه في القرآن وذهب إلى المدرسة وقال: كيف يرسب ابني في القرآن وهو أسهل المواد؟ وعبثاً حاول مدرس القرآن أن يقنعه بأن القرآن ليس سهلاً كما يتصور، بل إنه يحتاج إلى وعي وتدبر، ثم أثبت المدرس للأب ضعف ابنه بأن طلب منه القراءة أمام أبيه، فكان منه في تكسير آيات القرآن ما كان.

نعم.. القرآن سهل وميسور على من يسره الله عليه.. على من يتعب نفسه في قراءته.. على من يتعهده دائماً بالقراءة والدراسة.. ولكنه صعب ثقيل على المتهاونين، وما أروع وصف الرسول ﷺ بأنه يتفلت من المسلم ـ إذا لم يكن على صلة به ـ كما تتفلت الإبل من عقالها.. ونحن بهذا الحديث لا نركب

الناس شططاً، ولا نطلب من المهندس ـ مثلاً ـ أن يكون عالماً في التفسير، ولكننا نريد منه أن يكون على صلة بكتاب ربه وما أسعدنا عندما نرى المهندس المسلم بحق، والطبيب المسلم بحق، والصحفي المسلم بحق.. والمزارع المسلم بحق..

إن عجز كثير من المتعلمين تعليماً عالياً عن التعبير السليم عن أفكارهم.. وركونهم إلى العامية عندما يقفون موقفاً علمياً أو أدبياً يتحدثون فيه، وإذا أرادوا التحدث بالفصحى فإنهم يأتون بلغة «ممسوخة» تثير في نفس السامع الواعي إحساساً بسوء الحالة التي وصلت إليها هذه اللغة.. أقول إن ذلك العجز يعد نتيجة من نتائج الإهمال في قراءة القرآن ليس غير..

وبعـــد،

فإن كبار الكتاب العرب وأجودهم لغة، وأقومهم أسلوباً، وأروعهم تصويراً كانوا على صلة في مرحلة من مراحل حياتهم بالقرآن.. وما سيد قطب، ومصطفى صادق الرافعي عنا ببعيد.. حتى إن طه حسين قد أسنَدَ الفضل في جمال أسلوبه إلى حفظه القرآن الكريم وهو صغير.

وبعد أيضاً:

فإن المشكلة قائمة.. وإثباتها لا يحتاج إلى كثير جهد،

وأعتقد أن من الواجب علينا أن نعمل على حلها، والحل - في نظري - يرتكز على أساسين:

١- تعليم الصغار من طلاب المدارس الابتدائية والمتوسطة.. وهذا يحتاج إلى تكثيف حصص القرآن عندهم مع إيجاد المدرسين الجيدين في هذا الجانب لينتزعوا من ألسنة الطلاب هذه الرطانة العامية التي تنشأ معهم، ولا سبيل لانتزاعها إلا بتعويدهم على قراءة القرآن، وليبنوا فيهم شخصية المسلم الإيجابي الملتزم.

٢- الكبار من طلاب الثانوية وما فوقها، ومعهم المتخرجون من مدرسين وموظفين على اختلاف فئاتهم.. وهؤلاء بإمكانهم أن يقوّموا لغتهم بأنفسهم وما عليهم إلا أن يضعوا لأنفسهم برنامجاً يكونون به على صلة بالقرآن وسيرون كيف تكون النتائج.

وأخيراً، فما أصدق قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، وما أصدق قول الرسول ﷺ فيما معناه: «اقرءوا القرآن فإن لكم بكل حرف حسنة لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

فضائل لو وعيناها بنينا ... بها مجداً وصرنا السابقينا
ولكنا تعامينا فصرنا ... أمام عدونا متخاذلينا

*****

إلى أين ... يا عزيزتي؟!

١٤٠٤/٢/١٩هـ

لم تكن عيناك زائغتين كما أراهما اليوم، ولم تكن ابتسامتك صفراوية باهتة كما أراها اليوم.. حتى صوتك الذي كان يتسلل إلى أعماق نفسي كما يتسلل الندى في صبيحة يوم ربيعي إلى أعماق زهرة تبتسم لضياء الفجر.. ذلك الصوت العذب الجميل لم يعد ينبث في كل زاوية من زوايا قلبي ليشيع في حناياه السعادة والهناء...

لقد أصبحت شيئاً آخر.

أصبحت تثيرين في نفسي ألماً جارفاً يصول في حناياها ويجول.. لقد بنيت للألم في قلبي أساساً قوياً.. لماذا..؟ وكيف..؟

لقد كنت أحس.. من قبل بمقدمات ذلك التغير الرهيب في حياة الزهرة التي عرفت..

تغيُّر.. رهيب..؟!

نعم.. لأنَّ الزهرة قد تحولت إلى حنظلة..

حنظلة..؟!

نعم.. ويالها من حنظلة مرة المذاق..

ستقولين: إنك تتجنى وتقسو.. لا عليك.. فقد تعودنا في زماننا هذا على هذه التهمة.. فالذي يقول الحق وينطق به يقسو، ويتجنى، ولا يداري مشاعر الناس.. أما الذي يخنق صوت ضميره وينافق، ويداجي فهو المتحضر المتمدن.. إنه - يا عزيزتي - خلل يجري في أذهان البشر.. وماذا نصنع إزاء هذا الخلل؟ من أي باب نخرج؟ ومن أي نافذة نطل؟

ستقولين: إنك جامد الفكر، ميت الطموح ـ لا عليك.. فقد تعودنا في زماننا هذا على مثل هذه التهمة... فالمتمسك بأصالته جامد، والواقف عند حدوده غير طموح، أما.. المنفلت من قيمه.. والمتجاوز لحدوده فهو المتحرك الطموح.

قولي ـ إذن ـ في شأني ما تريدين.. ودعيني أستعيد معك شريطاً من الزمن.. ليس بالقصير ولا بالطويل.. ولكنه يحمل من المشاهد المتناقضة والصور المتأججة بين العلو والهبوط ما الله به عليم.

كنت أنت قبل «الانزلاق»، واسمحي لي أن أستخدم هنا كلمة «الانزلاق»؛ فإنها في نظري أصدق كلمة في التعبير عما جرى لك.. كنت تسألين كثيراً..

سألتني عن الحرية.. لم يكن سؤالك طبيعياً.. بل أحسست أنك تزفينه إليَّ ومعه زوبعة هائلة من الانفعال

والتأثر.. عرفتُ ذلك من خلال تلك الرعدة التي سرت في جسدك وأنت تسألين.. ومن خلال ذلك الجفاف الذي غطى شفتيك بطبقة بيضاء لم يستطع ريقك أن يزيلها.. لقد تشاغلتُ ـ حينها ـ عنك لأ تيح لك فرصة تلمين فيها شتات فكرك.. وتتخلصين فيها من ذلك الانفعال والاضطراب.. ولكنك ـ لشيء في النفس ـ ظننت تشاغلي تجاهلاً وصرختِ بي: لماذا لا تتحدث..؟! هكذا أنتم أيها الرجال تتجاهلون مشاعر النساء.

عزيزتي... لقد تحول وجهك حينها إلى صفحة تمتزج فيها الألوان، حمرة الخدين مع زرقة الشفتين.. مع سواد خفيف لا يكاد يظهر، يشيع في آفاق وجهك، وقد ساعد على تمازج هذه الألوان ذلك العرق الذي كان يتصبب غزيراً غزيراً..

لقد قلت لك بهدوء: لماذا الانفعال يا عزيزتي؟

هدأتِ قليلاً وقلت لي: لأنك تجاهلت سؤالي...

ومع ذلك فقد أجبتك.. قلت لك.. الحرية ـ يا عزيزتي ـ كلمة عظيمة في معناها ومدلولها.. إنها أكبر من تفسيرات المفسرين.. ومن تشدق المتشدقين، الحرية.. كلمة.. لها من الظلال والإيحاءات ما لا يدركه المدَّعون المخادعون.. الحرية وحدها.. كما قال أمين الريحاني ـ هي سيف ذو حدَّين..

والحرية ـ مع التهذيب ـ نبراس ذو نورين.. نور يضيء الطريق خارجاً، ونور يضيء ويطهر باطناً..

ثم استعرضت معك بطلان دعوى الحضارات البشرية قديماً، وحديثها بأنها تسعى لتحقيق الحرية للناس.. وقلت: إنها تتشدق بالحرية وهي لا تكاد تدرك معناها الصحيح وكان الإسلام هو الدين الذي راعى الحرية وهذَّبها وجعل صلتها بواقع البشر قوية عميقة الجذور. وإن أنس شيئاً.. فلن أنسى ثورتك عليَّ عندما قلتُ لكِ: الحرية بمدلولها الصحيح في عالم البشر.. هي أن ينال الإنسان كل ما يستحق في حياته بضوابط.. والضوابط هي الخيط الرفيع.. والجدار السميك في آنٍ واحد.. الذي يفرق بين الحرية والانحلال..

لقد كانت ثورتك عارمة.. وكلماتك قاسية.. عندما قلت لي: إنك جاهل!.. كيف تجمع بين الحرية والضوابط..؟!

وبعد جدالٍ لا أدري بماذا أصفه.. ولكن ـ على أي حال ـ كان جدالاً عقيماً.. لأنك كنت تجادلين وتسألين لا لتعرفي حقائق الأمور.. ولا لتجدي مدخلاً إلى فائدة تستفيدينها.. ولكنك كنت تسألين.. وفي ذهنك فكرة، كانت قد رسخت وأخذت مكانها واستولت على كيانك، كنت تسألين.. للتحايل على صوت ضميرك «الحي»، أو الذي كان بالأمس حياً..

تسألين لتجدي مخرجاً من رقابة الضمير.. لا لتجدي خلاصاً لذهنك من فكرته الوافدة.. ولضميرك من غفوته القاسية.

وظللت يا عزيزتي.. تسألين، وتسألين.. وجاءت لحظة النقلة الخطيرة في حياتك، لحظة الخروج من النور إلى الظلمات؛ من الرياض الغنَّاء إلى الصحراء القاحلة، من الأرض الصلبة إلى أرضٍ رخوة تغوص فيها الأقدام، من الحياة إلى الموت..، أتذكرين تلك اللحظة..؟!.

سألتني حينها عن موضوع خطير، سألتني بعد أن تقلبت زمناً - كما عرفتُ ذلك فيما بعد - بين أحضان شُذّاذ الكتاب والمفكرين.. بعد أن وقعت في شراك الهابطين من الأدباء والشعراء والمتحذلقين.. سألتني، وفي ذهنك ركام من القصص، وأخبار الانحلال، وخليط عجيب من أفكار المذاهب الغربية على اختلاف ألوانها وأنواعها.

سألتني، وكنت قد وضعت رجلك في طريقك الجديد، لم أكن أعلم - حينها - بهذا الاتجاه الذي سلكته، وإلا لوفرت على نفسي ذلك التعب الذي أحسست به وأنا أجيب عن سؤالك الخطير.. ذلك السؤال الذي قذفت به إليَّ من بين شفتيك المتيبستين جامداً جافاً، لا لون له ولا طعم ولا رائحة.

مـا رأيك في عـمل المرأة جنبـاً إلى جنب مع الرجل..؟! سؤال كبير كالبحر الذي لا شاطئ له، أو كالصحراء التي لا حدود لها.. لم أجبك عن هذا السؤال مباشرة.. ولكنني آثرت ـ حينها ـ أن أتحدث إليك بما كنت مقتنعاً به ـ ولا زلت ـ، وهو أن الإنسان لا يحق له أن يضع أوامر دينه القطعية تحت طائلة الأخذ والرد، والسفسطة العائمة.. وذكرت لك أن حكم الله تعالى مقدم على حكم الهوى والنفس ، ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾، «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» .

ثم أوضحت لك عظمة التوازن ـ في ديننا ـ بين متطلبات الروح والجسد.. ووصلت معك إلى نتيجة مهمة بنيناها على مقدمات مقنعة، وعلى تجارب جرت في مجتمعات قريبة منَّا بعيدة عنا.. وهي أن اختلاط المرأة بالرجل شر لا خير فيه، ولعلك تذكرين أننا قد وصلنا ـ سوياً ـ إلى هذا الحكم بعد استقراء لواقع المجتمعات البشرية المعاصرة التي تغوص حتى أذنيها في أوحال الرذيلة والفساد..

إلى هذه النتيجة وصلنا، ولكنك ـ كما قلتُ ـ لم تناقشي

هذه القضية إلا بعد أن اخترت الطريق وحملت الفكرة، وهذا ما لم أعرفه إلا بعد فوات الأوان.

ولهذا.. فقد كان نبأ انزلاقك مؤلماً.. وكان مفاجأة لم تخطر لي على بال.. لقد غامت سماؤك وكانت صحواً، أجدبت أرضك وكانت خصبة، وجف نبعك وكان معطاء!.

عزيزتي...

أتدرين لماذا وجهت إليك هذه الكلمات بعد أن ابتلعها الصمت زمناً غير قصير..؟!

بلغني ما وصلت إليه بعد رحلتك التعيسة.. علمت أن حماستك صارت فتوراً، وشدتك صارت ضعفاً، وأحلامك الوردية صارت كوابيس مؤلمة لا يقر لنفسك معها قرار.. الأيدي التي لوَّحت لك صارت تلطمك، العيون التي رمقتك صارت تقتحمك، الألسن التي مدحتك صارت تذمك.. هل انتهى كل شيء بعد هذا..؟!

كلا لم ينته كل شيء.. أقول ذلك، على الرغم من أنك قد فارقت الحياة.. فارقت الحياة..؟!

نعم يا عزيزتي فإنك قد مت ميتتك الأولى، ولا تسأليني:

كيف يموت من هو على قيد الحياة، فإن كثيراً من الناس يموتون مرتين، الأولى ـ وهي الأخطر ـ حين تموت ضمائرهم.. والثانية حين تنتقل أرواحهم عن عالمهم الدنيوي إلى العالم الأخروي، وهذا هو الموت الطبيعي الذي يمر على كل إنسان، ولربما عاش الإنسان بعده في أذهان الناس فكان حياً برغم موته.. أما موت الضمير فإنه الكارثة الماحقة، يموت الإنسان وهو حي!. يا لها من مأساة تتفطر لها القلوب...

ليس من مات فاستراح بميت
إنما الميت مـيّتُ الأحيـاءِ

نعم... لقد شيعتك إلى قبر الضلال، حين أعلنت خروجك من حياة الهدى، فكنت بذلك ميتة وحية في آن واحد.. ميتة بكل ما تحمله كلمة الموت من معنى، وحية بمعنى واحد فقط، هو معنى الحيوانية الهابطة..

ومع ذلك فإنني أقول لك لم ينته كل شيء.. فالطريق إلى الحياة لا يزال مفتوحاً، وبريق الأمل لا يزال يلمع في ظلام اليأس، وليس بينك وبين الحياة إلا حركة شفة ونبضة قلب، وخطوة قصيرة تتجاوزين بها أرضك المجدبة إلى أرض خصبة معطاء..

أنا لا أكتمك.. إن صورتك قد غامت في عيني.. لم أعد أعرفك الآن.. أنا أعرف فتاة كالزهرة، كانت تفيض بالأمل.. والعفة.. والعطاء.. ثم ماتت.. تلك الفتاة «الزهرة» في أعماقك.. قتلتها أنت بيدك.. وأسكنت في مكانها فتاة أخرى.. مختلفة الملامح.. غريبة الوجه واليد واللسان.. كما أنني لا أكتمك.. أنني منذ شيعت تلك «الزهرة».. وأنا أحس بأنها ستعود.. ستجد لها تربة ملائمة تنمو فيها من جديد، صحيح أن الرياح قد عصفت بها.. ولكن لها جذور لا تزال راسخة في تلك الأرض الطيبة.. وهأنذا.. أشعر بتباشير الفجر بعد احتدام الظلام.

الطريق مفتوح، والنور يشع في جوانبه، وما عليك إلا أن تسلكي.. وما دمنا قد وصلنا إلى الأمل.. وعرجنا على ساحة الرجاء.. فلا بأس أن أقص عليك خبراً، أو أخبرك بقصة لعلها تدفعك إلى أن تضعي قدمك في الطريق الصحيح..

كانت القاعة مكتظة بالناس، ولعل الواقفين فيها كانوا أكثر من الجالسين، وفي صدر القاعة الكبيرة يستقر مسرح كبير تحاصره أعين الحاضرين وهي ترقب ظهور عارضة الأزياء الشهيرة.. وكان من بين الجالسين فتى يتخطى العشرين

بسنتين وبجواره فتاة تحول بينها وبين العشرين سنتان.. كانا ينظران إلى المسرح مع الناظرين.. وكانت نظراتهما تتميز بشدة التلهف، ذلك لأنهما لم يعهدا مثل ذلك الأمر في بلدهما.. وفي خضم هتاف الحاضرين وتصفيقهم التفتت فاطمة إلى أخيها محمد وقالت: انظر هكذا تكون الحرية.. ألا ترى تلك الابتسامة على شفتيها.؟ إنها تعبر بها عن سعادة غامرة لا حدود لها.

أما محمد فقد كان في شأن آخر..بهرته تلك العارضة بجمالها وأناقتها.. وذهب به فكره كل مذهب.. ورحلت به أمانيه في دروب أحلام لا نهاية لها.. إنه «الانزلاق» يا عزيزتي جرَّ محمداً وفاطمة إلى ذلك المكان.

ولك أن تسألي الآن، وماذا بعد..؟ هل وَقَفَت القصة عند هذا الحد..؟

كلا.. فقد التقى محمد وأخته بالعارضة الجميلة «السعيدة» في نظرهما.. وحصل بعد ذلك بأيام لقاء بين الثلاثة على موعد حدَّدوه..

كان اللقاء مشحوناً بالتساؤلات.. فاطمة تلح بالسؤال تلو السؤال، والعارضة تجيب وفي صوتها رنة الصدق، وعلى

ملامحها صورة الجد.. تحدثت عن «الحرية» في بلادها، عن حقيقة وضع المرأة.. وكانت تلحق كل كلمة بتنهيدة.. ثم حانت منها التفاتة إلى محمد وإذا به يلهب جسدها بنظرات مريبة، وقد بدا عليه عدم الرضا لهذا الجو الجاد الذي يحول بينه وبين ما يريد.. وهنا صرخت في وجهه قائلة: أنت لا تختلف عن بقية الرجال الهابطين.. تنظر إليَّ بعيني ذئب، تنظر مني إلى الإطار الخارجي.. تلهب جسدي بهذه النظرات اللاهثة، لا يهمك أمر الإنسانة التي تعيش في داخلي.. لا تهمك روحها، ولا أشواقها، ولا مشاعرها، لا يهمك أن تموت مرة أو مرتين، أن يعصرها الأسى ألف مرة.. آه من هذه الحياة التي أجبرتني على أن ألقي بنفسي بين وحوش لا تعرف للإنسانية معنى..

ثم اتجهت العارضة وهي في ثورة عارمة بالحديث إلى فاطمة وسألتها بعنف واستنكار.. ألست يا فاطمة مسلمة كما تقولين..؟ قالت: بلى.. فسألتُها أو قل لطمتُها بسؤال كان بالنسبة إلى فاطمة بمثابة نداء قوي هزها من الأعماق: فلماذا إذن تتحللين عندنا هنا..؟! عن أي شيء تبحثين في حياتنا..؟ هل تريدين الضياع كما ضعنا..؟ هل تريدين الموت كما متنا..؟! ماذا تريدين بالله عليك من حياة قوم أضاعوا كرامتهم وشرفهم ومزقوا أسرهم باسم الحرية والتطور الزائف..؟ ولم

تجب فاطمة عن هذه الأسئلة، بل استولى عليها صمت طويل..

أما محمد فقد نظر إلى العارضة بعد حديثها هذا، وانجلى عن قلبه غبار رغبته الحيوانية.. وسألها: وأنت ماذا تريدين..؟ ونظرت بعينين دامعتين وقالت: أريد إنساناً يعرف أنني لست جسداً فحسب، أريد إنساناً يوقظ في أعماقي امرأة نائمة تعشق الفضيلة والاستقرار، أريد إنساناً ينتشلني من هذا المجتمع الزائف الذي يطحنني طحناً، ويسلبني أغلى ما لدي.. يسلبني إنسانيتي وعفتي.. أريد هذا الإنسان من أي جنس أو لون كان، وسأمنحه كل ما أملك من حب وعطف وحنان.. ولم تترك لها دموعها مجالاً للحديث.. أتدرين - يا عزيزتي - ماذا صارت بعد ذلك.. لقد أصبحت تلك العارضة تحمل اسم «عائشة» زوجة «محمد» أم «خالد»، وصارت مثالاً للعفة والاستقامة، بعد أن هربت من جحيم الانحلال، إلى نعيم الحرية الإسلامية، وإلى ظلالها الوارفة، لقد هربت من زيف العالم الذي آثرت أن تفرّي إليه يا عزيزتي!..

*****

أيتها الزهرة

١٤٠٦/٤/٩هـ

الفجر ينساب في آفاق الكون ببطء وحذر... والليل يلملم أطراف ثوبه الأسود في خوف وذعر.. والشمس تغزل خيوط ضيائها من وراء الأفق وتطلُّ في حياءٍ على الأرض.. وزهور الوادي في حالة نشوةٍ تعيش فيها أسمى أنواع العشق مع خيوط الضياء.. وقطرات الندى.. ما أجمل هذا المنظر وما أروعه!. ليل هارب.. وفجر حالم.. وشمس تتهيّأ للإشراق، وزهور مبتسمة، وطَلٌّ يبدو على أوراقها لامعاً يعكس ضوء الفجر كأنه قطرات من العَرَق على جبين زهرةٍ رائعة من زهور البشر.

وانساب النظر في آفاق الوادي يتنقل من زهرةٍ إلى زهرة، ويبدو عليه ذهولٌ واستغراب.. وتنطق النظرات بقدرٍ كبيرٍ من اللهفة والشوق.. والترقُّب، وتصير بعد زمن أسئلةً بدأتْ هادئة ثم التهبت.

أين الزهرة؟

ما بال الوادي يبدو في عينيَّ واجماً.. حائراً..؟.. ما بال الأزهار تبدو أمامي باهتةً لا حياة فيها ولا رواء؟ مع أنها تحمل

من معاني الحياة أجملها وأرقها وأسماها؟!

أين الزهرة؟

عفواً أيها السائل الحيران.. فزهور الوادي لا تُحصى عدداً، انظر وتأمل واقطف ما شئت.. هل خلت الدنيا إلا من تلك الزهرة؟.. ما بالك تغلق أبواباً قد فُتحت.. وتصر على نافذةٍ أغلقها في وجهك تدبير لا تعرف فحواه؟

اغمض عينيك قليلاً.. وارسم في ذهنك آلاف الصور لآلاف الأزهار، ثم افتح عينيك لترى من بين زهور الوادي زهرتك المفقودة.. الأوراق هي الأوراق.. والساق هو الساق، والطلّ هو الطلّ.. فلماذا لا تتخيَّر من أزهار الوادي إلا زهرة واحدة؟

أيُّ سؤال هذا؟

الإنسان كتلة من المشاعر.. الإنسان قلبٌ نابض.. والعبرة بالإحساس، العبرة بالقلب وخفقانه لا بتشابه تلك الأزهار.

أيَّتها الزهرة..

قد تلمح عيني من أزهار الوادي أصنافاً لا تُحصى.. لكنّك أنت الزهرة.. أنت الوادي.. أنت الطلّ.. أنتِ ضياء الفجر،

فكأنّ الفجر ينبثق من أوراقك.. وكأنَّ الشمس تسير إلى الأفق الأبعد منطلقةً منك... وكأني لا أدخل عالم أشواقي إلا من خلالك.. أنتِ بوَّابة الأمل.. بل أنتِ الأمل المشرق، فلماذا أبقى في شوق للإشراق.. وعندك نَبْع الإشراق؟!

وقفة:

أنت يا عصفورة تشدو على أغصان حبي

أينما طرتِ ستلقيني فإنَّ العشَّ قلبي

*****

رويدك يا قلمي

أيها النازف دم القلب.. يا من تذوق طعم مشاعري وأحاسيسي، وتسمع نبضات وجداني قبل أن تصل إلى الناس.. يا من تطيع أصابعي حين تسير بك على سطور الورقة أملاً مشرقاً، أو ألماً يفيض به القلب.. صفاءً تسعد به النفس.. أو شقاءً يسدُّ عليها الطريق إلى البسمة الجميلة.

أيها القلم .. إلى أين تسير..؟.. أما تحسُّ بلهب المشاعر؟ أما ترى لون المعاناة؟ أما تسمع صدى الحنين؟.. فلماذا إذنْ ترسم لي صوراً مختلفة لقلبي على الورق؟ أما من شفقة بهذا الطائر الذي يحلِّق في كلِّ سماءٍ وهو في قفصه.. ويحمل هموم الدنيا وهو ساكنٌ، إلا من نبضاتٍ يعبر بها عن كل ما فيه من مشاعر متناقضة؟.

رويك يا قلمي...

فأنت رسول قلب.. سفير عالم متكامل من الأحاسيس، أنت جِسرٌ يصل بين قلبي وقلوبٍ أخرى تشعر وتتفاعل.. تحب وتكره.. تشقى وتسعد. أنت منظم هذا اللقاء الغرامي بين الكلمات الصادقة والنفوس المتعطِّشة إلى الصدق.. فلماذا لا تهدأ قليلاً حتى لا تختلط عليك معالم الكلمة؟

معالم الكلمة؟

نعم أيها القلم الحبيب.. إن للكلمة معالم وحدوداً.. وإن لها دوراً كبيراً في حياة البشر.. الكلمة يا قلمي ليست عالماً «فوضوياً» لا نظام له، وليست جسداً فارغاً من الروح.. وليست غباراً يثور من صحراء «اللاوعي» يحول بين الناظر وبين الرؤية الواضحة للأشياء.

الكلمة يا قلمي أكبر من ذلك وأعظم.

رويدك يا قلمي...

وسجِّل معي قول الرسول ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً تهوي به في جهنم سبعين خريفاً»، أرأيت إلى هذا الإحساس العظيم بقيمة الكلمة وعظمة دورها؟ إنك يا قلمي وأنت تتعامل مع الكلمة .. تتعامل مع أمرٍ خطير.. ربما صرت به قلماً نزيهاً ثابتاً في دربك الطويل.. وربما صرت قلماً ينطلق كالسهم المسموم إلى قلوبٍ تصير ضحايا لك من حيث لا تدري.. وهنا تكمن المأساة، وهنا أراني مضطراً إلى أن أقول لك بصدق:

رويدك يا قلمي..

وما أصدق ما قال أحد الحكماء: «القلم أنف الضمير إذا رعف القلب كتب القلم».

كذلك يجب أن تكون الكلمة نزفاً للقلب لا تقليداً أعمى.

الموروث الشعبي ... إلى أين ؟

١٤٠٧/٨/٨هـ

عندما تعقد ندوة في «المملكة العربية السعودية» موئل اللغة العربية ومهبط الوحي، ومنطلق الرسالة الإسلامية الخالدة.. فإن أوَّل ما يفترض في هذه الندوة أن تكون موافقة لمكانة هذه الجزيرة الدينية، وملائمة لرسالتها الخالدة التي لا يجوز بحالٍ من الأحوال أن تنفصل عن عقيدة الإسلام.

هذا المعنى أكَّده بصورة جميلة صاحب السموّ الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز وليّ العهد حينما استضاف الشخصيات التي دعيت إلى مهرجان الجنادرية قائلاً: «نحن نرحب بكل رأي وفكر فيما لا يمس الدين والوطن».

وهذا المعنى هو الذي نركّز عليه نحن من قبل ومن بعد، إيماناً منا بأن الأساس المتين الذي نشأت عليه هذه المملكة الفتيَّة إنما هو الالتزام بشريعة الحق، في وقت تعدَّدت فيه التوجُّهات واضطربت فيه الأفكار.. وذهبت بلاد إسلامية كثيرة ضحية الغرب والشرق. الجنادرية.. خطوة طيبة في جانبها الوطني الذي يهدف إلى تذكير الناس بحياة سابقةٍ كلها عناء وشقاء حتى يحمدوا الله على حياة حاضرة كلها نعيم ورخاء..

ولكنَّ مهرجان الجنادرية في جانبه الآخر «الجانب التنظيري» يحتاج إلى وقفةٍ طويلة متأنية، تدرس فيها الأفكار بموضوعية وشمول على ضوء «الرسالة السامية» التي تضطلع بها بلادنا والتي أشرنا إليها سابقاً.

إن ندوة الموروث الشعبي التي عُقدت في مهرجان الجنادرية ندوة مهمة لأنها وضعت بين أيدينا صورةً واضحة للفكر الذي تنطلق منه ورقات العمل المقدّمة من بعض الأشخاص المشاركين في تلك الندوة.

ونحن هنا لن نتعرض للتاريخ الفكري الخاص ببعض الأشخاص الذين حضروا مهرجان الجنادرية من خارج المملكة.. ولن نتعرض لإنتاجهم الأدبي والصحفي السابق لانعقاد المهرجان، ذلك لأن هذا الأمر لا يهمنا الآن.. وربما كان مهماً لنا فيما بعد.

ولكن الذي نريد أن نتعرض له هنا هو تلك الأفكار التي طُرحت في ورقات العمل المقدمة.. تحت عنوان «الموروث الشعبي»، وهي أفكار مطروحة نُشرت في أكثر من صحيفةٍ ومجلة يستطيع القارئ أن يعود إليها بيسرٍ وسهولة.

الموروث الشعبي...

كلمة لها ظلال ولها جوانب إيحاءٍ كثيرة.. وربما كانت ـ لذلك ـ كلمة لا تخلو نفس المتأمل فيها من دهشة أو خوف، وقد عبَّر عن هذا الدكتور فهد الحارثي حين قال: «وأجد قلبي يرتفع وينخفض بين هجمة الخوف والتماعة الدهشة».

الخوف والدهشة.. من ماذا؟!

من الكلمة نفسها؟. كلا.. فهي كلمة جميلة الحروف، عذبة الإيقاع، إنما الخوف من مدلول الكلمة وظلالها البعيدة.. ذلك لأنها كلمة تذكرنا بكلمات أخرى سبقتها بأعوامٍ طويلة في بعض أنحاء العالم الإسلامي.. العامية.. اللهجة الشعبية.. الشعر العامي.. اللغة الثالثة «لغة الصحافة».. اللهجات الإقليمية.. كل هذه المصطلحات تأتي سياقاً لكلمة «الموروث الشعبي» فهل نشأ الخوف والدهشة من هذا الجانب؟..

لندع هذا السؤال الآن حتى نتمكن من الدخول في الموضوع بصورة أعمق، ونبدأ بعرض سريعٍ لبعض الأفكار والآراء التي طرحت في ندوة « الموروث الشعبي» في الجنادرية.

فقد تحدَّث في تلك الندوة بعض الأشخاص منهم أحمد عبد المعطي حجازي، وشريل داغر، ود/سعد الصويان.

أما ورقة شريل داغر فلا أدري كيف تسلّلت إلى الندوة،

بالرغم من ركاكة أسلوبها، ومن اللّت والعجن في معانيها وأفكارها.. وبالرغم أيضاً من ضعفٍ واضحٍ في لغتها.

وقد بدأ شربل داغر ورقته بقوله: «الجنادرية منبرٌ للموروث الشعبي، وهي أمنيةٌ طالما تمنَّاها الدارسون» ثم يدعو إلى أن تكون الجنادرية منتدىً عربياً واسعاً لدراسة الموروث الشعبي، وينتقد الدارسين العرب بأنهم أهملوا؛ فهو يقول منتقداً: «محمد عمارة يقتصر في مصطلح الحديث على التراث الفكري العربي الإسلامي في حركاته واتجاهاته» وكأن داغراً بهذا الانتقاد يريد أن يجعل الأدب العامي جزءاً مهماً من تراث الأمة العربية الإسلامية، ولذلك فهو يقول في ورقته: «إن لطرح هذه الجوانب التراثية الشعبية أهمية مبدئية في سياق التصدي لقضايا الثورة الثقافية في الوطن العربي في قاعها الاجتماعي».

ولا أدري ما معنى «الثورة الثقافية هنا»، ليس جهلاً مني بها ولكن حيرة في أي جوانبها يعنيه الكاتب.. فنحن نعلم أن التغريب كان ينادى به تحت مسمى «الثورة الثقافية».. وأن إهمال التراث العربي الإسلامي المستمدّ من لغة العرب التي هي لغة القرآن كان ينادى به تحت مسمَّى «الثورة الثقافية» ولا يزال.

هل وقف وعينا نحن أبناء هذه البلاد .. دون إدراك هذه المعاني التي يطرحها داغر في ورقته المقدمة إلى مهرجان الجنادريّة؟ كلاَّ ـ والله ـ إن وعينا بمعنى كلمة التراث وإدراكنا لمعانيها ومدلولاتها يجعلنا في غنى عن مثل هذه الأفكار المتناثرة التي لو قدِّمت إلى لجنة فاحصة مدققة لما قُبلت؛ لأنها ـ بحق ـ دون مستوى المشاركة بها في ندوة أدبية يفترض فيها أن تكون عميقة دقيقة.

يقول شربل داغر في ورقته متحدثاً عن اتجاه بعض الأدباء العرب إلى إحياء التراث الشعبي واستخدام رموزه فيقول: «ومنهم من عاد إلى رموز أسطورية سابقة على الحضارة العربية الإسلامية فهو يعيد صياغة وجداننا الحضاري صياغة تاريخية تنظر إلى بابل وآشور وفينيقيا ومصر القديمة كما ننظر إلى الأسفار الشعرية في التوراة والإنجيل والقرآن».

أستغر الله من هذا الخلط.

تأمل ـ أيها القارئ الكريم ـ هذه العبارة، ثم اعجب كل العجب كيف يُسمح لمثل هذا الكاتب أن يقول بملء فمه في بلاد الإسلام «الأسفار الشعرية في التوراة والإنجيل والقرآن»؟!

هل في القرآن شعر؟!

نحن لا نلوم شربل داغر فهو نصراني قد يبيح لنفسه أن يقول في القرآن هذا القول، ولكننا نلوم من اختاره ليكون أحد المنظرين لقضية الموروث الشعبي.. نلوم الذين قاموا على هذه الندوة من أبناء هذا البلد كيف يبيحون لأنفسهم هذا الاختيار؟!

إنه أمر خطير لا بد أن نقف بإزائه وقفة صادقة لا نتجنَّى بها على أحد، وإنما ندافع بها عن دستورنا.

كيف نسمح لمن يقول إن في القرآن أسفاراً شعرية كما في التوراة والإنجيل أن يتقدم بهذا الكلام إلينا ثم نسمعه صامتين، بل وننشر ورقته في صحفنا، ونرحب به ضيفاً علينا، ونضعه في قائمة الأشخاص الذين سيشاركون في الندوة مستقبلاً؟!

إن كل كلام جاء في ورقة داغر بعد هذا الكلام إنما يؤكد هذا الذي ذهب إليه، ولذلك فهو يستشهد بأدباء لا يرعون للدين مكاناً.. ثم يؤكد بوضوح أن «الشعر الفصيح خصوصاً لا يتناسب تماماً مع مادة الموروث الشعبي»، ثم يشير إلى أهمية التقاليد ذات الطبيعة الاعتقادية؛ مثل الزار، ونحر الذبائح، وتلاوة الرُّقى، واستخدام الأحجبة والتمائم والتعاويذ، وتقديم النذور، وزيارة المقابر والأضرحة...

يا سبحان الله !!

انظروا إلى هذه العبارة المنتقة، وتأملوا الأشياء التي سردها داغر، فسوف تجدونها جميعاً مرفوضة عندنا دينياً، كما أنها مرفوضة عند غير المسلمين من العقلاء الواعين.. ومع ذلك فقد ذكرت كلُّها في مهرجان الجنادرية، وربما صفَّق لصاحبها بعض الحاضرين ممن قد يعلمون وقد لا يعلمون.

ثم تشير هذه الورقة إلى أن المشكلة هي البحث عن الذات وتعيين هويتها الحضارية، ويرى داغر أن الموروث الشعبي يحقق هويتنا الحضارية، ونحن نقول له كلاَّ.. فقد أصبحت هويتنا الحضارية محققة بالإسلام رضي بذلك أعداؤه أم لم يرضوا.. هذا الكلام يقال لغير المسلمين، ولغير أهل هذه الجزيرة التي طهَّرها الله من دنس الشرك فعرف أهلها ذاتهم، وهم لا ينتظرون من أحد أن يبحث لهم عن ذواتهم. من المسؤول عن دعوة مثل هذا الكاتب؟.

أما عن ورقة أحمد عبد المعطي حجازي والتي قدمها بعنوان «قراءة مفتوحة للشعر الجاهلي» فقد جاءت مبنية على افتراضات وخيالات ليس لها أدلة علمية تؤيدها.. وقد استمدت ورقته أفكارها بطريقة غير مباشرة من أفكار الذين قالوا بانتحال الشعر الجاهلي.

وقد أشار في ورقته إلى أن الشعر الجاهلي جماعي لا فردي، وهو أقدم من الفصحى، وأنه نوع من الأغاني الفلكلورية، وحجازي يعني بالشعبية في ورقته العناصر الشعائرية أو الطقوسية وليس المقصود بها السذاجة والبساطة.. ثم يقول: إن للعرب شعراً قبل القرن الخامس الميلادي، ولكنه لم يكن بالفصحى..

عجباً، هكذا يقول دفعة واحدة وبكل سهولة إن الشعر العربي لم يكن بالفصحى. ما الذي يثبت هذا؟ وعلى أي دليل يقوم؟

إن الأمر لا يعدو أن يكون تخميناً ممن أشاروا إليه من المحققين، فكيف يصير عند حجازي ثابتاً قطعياً؟!

ثم يقول: «إن الشكل الأقرب إلى الشعر الجاهلي هو الأغنية الفلكلورية وليس القصيدة الكلاسيكية»..

كلها آراء متهافتة يظهر فيها التهوُّر والرغبة في أن يقول صاحبها ما يريد، فهي فرصة له أن يُدعى إلى ندوة كبيرة في المملكة العربية السعودية.. فما عليه لو قال ما أراد دون تحقيق أو تمحيص.. وما عليه لو جعل الشعر الجاهلي هو اللغة المقدَّسة للروح العربية في مواجهتها للحياة والمصير على حد قوله..

شيء غريبٌ فعلاً.. هل ننسى القرآن الذي أعطى أمتنا تأشيرة دخول إلى عالم الحضارة الإنسانية الراقية.. ومنحها القوة العظيمة لمواجهة صعوبات الحياة وقوى الباطل؟

يجيب عن هذا السؤال حجازي في ورقته بقوله: «نعم فالعقائد الدينية والذكريات الأسطورية هي الكنز الذهبي الحافظ لوجود الجماعة الأخلاقي والراعي الأمين الذي سيقودها نحو مستقبلها المجهول».

كلام معجون لا أساس له في واقع حياة المسلمين الذين أعزَّهم الله بالإسلام، ومهما طلبوا العزة في غيره أذلَّهم الله.

نحن لا نرفض الدراسة الأدبية الواعية المعتمدة على حقائق وأدلةٍ صائبة، ولكننا نرفض الدراسة الوهمية الإنشائية والتي ـ فوق ذلك ـ تمسُّ ديننا من قريبٍ أو بعيد..

نرفضها.. ونطرحها هنا لإخواننا القراء.. حتى يكون الرفض لها رفضاً واضحاً صريحاً.. وحتى لا تتكرَّر هذه الصورة في الأعوام المقبلة.

وأحب أن أنادي في هذا المكان المسؤولين عن تنظيم مهرجان الجنادرية.. والمشرفين على ندوة الموروث الشعبي، أن ينظروا إلى الموضوع بعين البصيرة، لا بعين الانفعال العاطفي

الذي لا ينفع ولا يجدي.

فمثل هذه الندوات لا مجال فيها للمجاملات.. ولا مجال فيها للتركيز على الأصدقاء و«المعارف».. فالندوة لها جانبها العلمي، ولها منطلقها الفكري، فمن الواجب أن توجه الدعوة فيها إلى المتخصّصين في مجال اللغة، وليس إلى الصحفيين والإنشائيين من الكتاب والأدباء.

ثم يجب أن يكون الاختيار منصباً على الأشخاص الذين يتميَّزون بوضوح الفكر، وصفاء السريرة... وبالأمانة العلمية والأدبية، وهم كثيرون في عالمنا العربي والإسلامي.

وهنا أقترح على الجهات المسؤولة في بلادنا أن تختار لجنةً من الأساتذة المتخصصين في مجال اللغة والأدب، وأن يكون اختيار هذه اللجنة دقيقاً حتى يسند إليها اختيار الأشخاص الذين يمكن أنْ يشاركوا في الندوة مستقبلاً.

إننا في غنًى عن كلمة قد يكتبها عنا كاتب أو شاعرٌ لا يتلاءم فكره مع أفكارنا.. ولا تتلاءم أهدافه مع أهدافنا.. فبلادنا بإنجازاتها الكبيرة لا تحتاج إلى الأقلام التي ترهَّلتْ وتقادم عهدها، إنما هي بحاجة إلى من يشعر بعظمة إنجازها الإسلامي، ممن يقدِّرون هذا الإنجاز ويفرحون به، وليس من

يسخرون منه.

هذا ولعلي أتمكن في مقال آخر أن أتناول الأفكار التي طُرحت حول الموروث الشعبي في الورقات الأخرى..

سائلاً المولى عز وجل أن يطهِّر قلوبنا، وأن يُصفِّي نفوسنا من كلِّ ضلال وانحراف، وأن يرزقنا وعياً كاملاً يضيء لنا الطريق.

*****

obeikandl.com

أطفال الحروب ... إلى أين ؟!

١٤٠٤/٦/٦هـ

«الحرب» هذا الاسم الرهيب الذي يرمز إلى أبشع أسلوب يتعامل به البشر.. الحرب.. هذه «الغول» التي تلتهم كل شيء.. لا تفرق بين بريء ومذنب، ولا بين صالح وطالح، ولا بين كبير وصغير.. هذه الغول لا تزال تلتهم أمننا.. وراحتنا.. وطمأنينتنا في عالمنا الإسلامي.. لا تزال تدوس رقابنا.. وتشتت شملنا.. وتلتهم أطفالنا الأبرياء.

وهنا مربط الفرس.. كما يقولون...

أطفالنا الأبرياء..؟!

نعم.. تلك البراعم التي تمضغها الأحداث مضغاً في فلسطين ولبنان.. وفي العراق وإيران.. وفي بلادنا المنكوبة في أفغانستان.

براعمنا ضحية الحروب.. يمارس العدوان في حقهم أشنع الجرائم، وما من سامع لنداءاتهم أو مجيب.

القتل أصبح وسيلة الكبار في هذا الزمن.. امتصاص الدماء وإهدار الحريات أصبح شعار الكبار في هذا الزمن..

ترمل النساء وتشريد الأطفال أصبح أمراً عادياً في عرف طغاة هذا الزمن...

أطفالنا الأبرياء..

رأيناهم في صبرا وشاتيلا جثثاً هامدة فبكينا.. ورأيناهم في طرابلس عيوناً حائرة فبكينا.. ورأيناهم على ساحة الحرب التائهة بين العراق وإيران ضحايا وأشلاء فبكينا.. بكينا فأبكينا.. ثم ماذا بعد؟!

هل هنالك ما هو أبشع من طعن صدور الأطفال، وبقر بطونهم بالسكاكين كما حدث في صبرا وشاتيلا...؟!

هل هناك ما هو أشنع من تمزيق جثة طفل بريء أمام عيني والدته؟!

كل ذلك مؤلم وشنيع.

كل ذلك دليل على حيوانية الحضارة المادية، ووحشيتها... كل ذلك دليل على ضياع العالم المتهم بالتعامل الحضاري..

كل ذلك..

وماذا أقول بعد..؟!

أي حضارة إنسانية تمارس هذه الأعمال الوحشية..؟ على

أي مبدأ تسير؟ ومن أي ينبوع تستقي..؟!

أطفالنا الأبرياء..

هذه الزهور الندية.. وهذه الوجوه البريئة.. وهذه الابتسامات الصادقة.

أطفالنا الأبرياء..

هذه الأكباد التي تمشي على الأرض.. ماذا دها عالم اليوم..؟ تهب عليهم عواصف الإرهاب، تدوسهم عربات الدمار.. تشرب من دمائهم سكاكين الغدر.. يحصدهم الرصاص.. كل ذلك يجري لهم والعالم ينظر إليهم بعيون الحيرة والضياع...

أواه من جاهلية القرن العشرين.

أواه من جاهلية أمريكا وروسيا وإسرائيل..

أواه من جاهلية المسلمين السائرين في ركاب المستعمرين.

يالها من جاهلية هابطة، أفضل منها تلك الجاهلية التي سبقت الإسلام، ولم لا؟ والشاعر يقول:

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لا متنعت عيني عن الغمض

نعم لو هبَّت الريح..

أما جاهلية هذا القرن فإن العواصف تهب على أطفالنا.. والرصاص يحصدهم، ومع هذا فإن نومها عميق، وغفوتها بلا حدود..

أطفال الحروب..

وأطفال المسلمين على وجه الخصوص.. ذلك لأن الحروب قد غرست في أرضهم غرساً، وجاء طلعها المشؤوم كأنه رؤوس الشياطين!.

هؤلاء الأطفال.. يمارس معهم الأعداء أسلوباً آخر لا يقل شناعة عن أسلوب القتل.. والتمثيل بالجثث وتمزيق الأشلاء.. ولكنه أسلوب يمتاز عن تلك الأساليب.. بالصمت.

نعم.. بالصمت الرهيب.. إنه كالطاعون يخفى عن الإنسان حين يستشري في جسده على حد قول الشاعر اليمني المعاصر عبد الله البردوني:

غزاة اليوم كالطاعون يخفى حين يستشري

لا تسألوني عن هذا الأسلوب..

ولكن.. اسألوا أطفال لبنان.. وأطفال أفغانستان.. اسألوا أطفال الهند من المسلمين.. وأطفال جنوب الفلبين.

بل.. فاسألوا عن ذلك الأسلوب نصارى الغرب، اسألوا الكنائس والأديرة.. اسألوا الجامعات والمدارس.. اسألوا الملاجئ والجمعيات « الخيرية»..!! اسألوا جمعية الصليب الأحمر.. اسألوا الرهبان والقساوسة، اسألوا كل هؤلاء عن الأسلوب الجديد الذي يستخدم مع أطفال الحروب من المسلمين ونحن عنه غافلون.

اسألوا ذلك الطفل اللبناني «مصطفى حاوي» بعينيه الصغيرتين الباحثتين عن مكان آمن بعد أن طحنت الحرب بيته وقتلت أباه وأمه.

اسألوا «مصطفى حاوى» الطفل الذي تبنته الحكومة الإيطالية «الحنون» - وأين الحنان..؟! - وجمعته بلاعب كرة القدم الإيطالي «زيكو» لأن مصطفى كان معجباً به.. ثم .. أدخلته في إحدى مدارسها التبشيرية.

لماذا أقول لكم اسألوا مصطفى..؟!.

لأنه كان يمثل حلقةً في سلسلة، وعوداً في حزمة.

هكذا يعمل الأعداء.. بعد أن شغلونا بقتل بعضنا.. بعد أن مسخوا شخصياتنا الإسلامية المتميزة.. عمدوا إلى أساس مستقبلنا.. إلى السواعد التي ننتظر منها أن تعيد أمجادنا،

عمدوا بأساليبهم المختلفة، وهم بذلك يستطيعون أن يصوغوا لأمتنا طريقة حياتها في المرحلة القادمة.

يا إلهي!. ما بالنا نغفو.. وإذا صحونا.. فبنصف عين نصحو..!!؟.

يا إلهي!. ما بالنا ننسى.. وإذا ذكرنا.. فبنصف قلب نذكر.. والنصف كثير..!؟؟.

أطفال أفغانستان.. يواجهون ذلك الأسلوب.. وهم لاجئون إلى الباكستان، لاجئون هرباً من قسوة الشيوعية الحمراء الحاقدة.. لا جئون هرباً من الرصاص الطائش والمدافع المجنونة.

ومع ذلك فجمعيات التبشير ممثلة في الهيئات الصحية المختلفة تحاول أن تلتهم.. تحاول أن تبني في كيانهم أساساً للأفكار الغربية والمبادئ النصرانية.. وإنهم ليحققون نجاحاً بعد نجاح.. بسبب تلك الحالة السيئة التي يعيشها اللاجئون من جوع وعطش وعري وخوف.

أطفالكم أيها المسلمون..

أطفالكم.. قبل فوات الأوان..

أطفالكم قبل أن تخسروا خسارتين؛ خسارة الأموال والأرواح من جانب ثم خسارة الجيل الذي يمكن ـ لو انتشلناه من براثن التبشير ـ أن يعيد لأمتنا مجدها وكيانها..

أطفالكم أيها المسلمون..

نشئوهم على مبادئ الخير المستمدة من دينكم الإسلامي العظيم.. قبل أن تعضوا على أصابع الندم.. وماذا ينفع الندم بعد فوات الأوان؟!

لا تنظروا إلى ما في يد الأعداء.. فإنكم إن شغلتم أنفسكم بتتبع ما لديهم خسرتم ما عندكم ولم تجدوا مما أردتم شيئاً.. فينطبق عليكم قول الشاعر العربي القديم..

وكنت كالعير غدا يبتغي قرناً فلم يرجع بأذنين!

أو قول الآخر:

ومازلت أقطع عرض الفلاة من المشرقين إلى المغربين
وأطوي وأنشر ثوب الهموم إلى أن رجعت بخفي حنين!

أطفالكم أيها المسلمون...

تذكروا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

عندكم الإمكانات المادية... والطاقات البشرية... والبلاد الواسعة... فلماذا لا تحتضنون أطفال الحروب من أبنائكم المنكوبين على أسس تربوية سليمة.. وبنية خالصة صادقة..؟

وأخيراً أهديكم قول الشاعر العربي:

رأيتُ أخا الدنيا وإن بات آمناً

على سَفَر يسرى به وهو لا يدري

اللهم إني قد بلغت فاشهد..

*****

obeikandl.com

وراء كل عظيم امرأة

١٤٠٦/١/٢٥هـ.

تضاءل الليل في خيالها، حتى غدا كأنه نقطةُ خالٍ سوداء في وجه أحلامها العراض، وتضخَّمتْ النجوم في عينيها حتى غَدَت كأنها بحارٌ من الضياء لا شواطىء لها.. كانت تحسُّ بأنها ذرَّةٌ تائهةٌ في هذا الكون الفسيح... ولكنها ـ في هذه اللحظة ـ أصبحت تحسُّ بأنَّ الكونَ ذرَّةٌ تائهةٌ في وجدانها الكبير..

وقلبت الصفحة الأولى من كتاب كان بين يديها.. قلبتها دون قصد، فإذا بعينيها تتسمَّران عند جملةٍ في أوَّل الصفحة... «وراء كل عظيم امرأة».

وأخذت تُوغل بتفكيرها بين حروف هذه الجملة... وهجم عليها سؤال دون سابق إنذار... يا إلهي أيمكن أن أكون وراءَ عظيمٍ من العظماء؟ وجمد السؤال على شفتيها.

وجمدتْ نظرتها على أحرف تلك الجملة.

وهيمن الصمت عليها لحظةً من الزمان... لم تلبث بعدها أنْ أسلمت ذهنها لأسئلة كثيرة... يا ترى من ذلك العظيم الذي

سأدفع به إلى عالم المجد؟ أهو فارس الأحلام الذي أنتظر قدومه من وراء الأفق؟ أم أنه ذلك الطفل الجميل الذي رسمْتُ له في ذهني ألفَ صورةٍ وصورة؟ وصمتت قليلاً... كان صمتُها بوابة على عالمٍ من التفكير لا حدود له.. لم تلبث بعده أن قالت ـ في يقين ـ: لا.. بل سأكون وراء عددٍ غير قليل من العظماء.. همتي الكبيرة.. نفسي التي تتوق إلى المجد.. ذهني الذي لا يكلُّ من التفكير.. صدق مشاعري.. دفء شوقي.. كل هذه الأمور ستكون من أعظم عوامل نجاحي في مهمتي..

وأطْبَقَ عليها الصمت مرَّة أخرى.. كانت صامتةً وفي أعماقها ضجيج.. حيرة.. وصراخ واضطراب.. معركة حامية بين رغباتها الجامحة وضميرها الوقور.. ومنافذ فكرها تُدخل إلى نفسها أفكاراً غريبةً من كلِّ حدبٍ وصوب.. ومسارب الذكرى تسوق إلى نفسها صوراً من ماضٍ قريب كانت تعيشه.. كانت تحمل فيه راية الخروج على كلِّ مألوفٍ في حياة أسرتها ولم تكن تتورَّع عن رفع صوتها في وجه والدتها بكل صراحة وثقة.. مكانك أنت في المنزل.. أما أنا.. فإنَّ علمي وثقافتي واطلاعي تؤهلني لأنْ أنطلق في خضمِّ الحياة.. لأثبت للرجال المتسلّطين أنني قادرة على سلوك الطريق الذي يسلكون.. بل..

وقادرة على التفوُّق في كلِّ مجالات الحياة التي يستأثرون بها.. كانت تصرخ في وجه أمها بحماسةٍ وعنف.. وأمُّها تستقبل عنفها برقةٍ ولين.

إلى هذا المنعطف المؤلم من ماضيها قادها التفكير.. إنها ماضٍ مشحون بمشاعر الثورة على كل شيء.. حتى على تلك العباءة السوداء التي كانت ترى فيها ليلاً حالكاً من الهروب والتضعضع عن إشراقة الحياة.. وكم كانت تشعر بالسعادة عندما تلقي عباءَتها عن كاهلها في قاعة الدراسة.. وإنْ تنس شيئاً فلن تنسى تلك الصفعة القوية التي وجهَّها إليها أبوها، عندما صرختْ في وجهه بغضب: لماذا تجبرني على لبس هذا الكفن الأسود.. بينما ترضى أنْ تلبس خادمتنا هذا الفستان القصير؟

سؤال قويٌّ صارخ.. أحسَّ الأب بأنه كالطلقة الموجَّهة إلى أعماق قلبه.. ولكنه لم يدع لابنته فرصة للتغلُّب عليه بهذا المنطق، فوجَّه إليها صفعته القوية، وفي أعماقه إحساس كبير بقيمة هذا السؤال الذي نطقت به ابنته، ولكنه أجاب عن الأسئلة الصارخة التي هجمت عليه بقولٍ أحسَّ بأن فيه مخرجاً من شعوره بالهزيمة.. إنها كلمة حق أُريد بها باطل!.

ونظر إلى ابنته التي لم تزل يدها على مكان الصفعة من وجهها، وقال لها: معك حق من واجبي أن أجعل الخادمة تحتشم لعلَّك تريدين ذلك؟؟..

كلُّ ما تذكره الآن من إحساسها بعد تلك الصفعة وهذه الكلمات من أبيها.. أنها سكتت.. ولكنه سكوت البركان الذي ينتظر لحظة الانفجار.. وهدأت بعدها.. وقلَّ حديثها وكثر انزواؤها ووحدتها.. حيث ظلَّت تتحاشى نظرات أبيها القاسية.. وهنا تقف عجلة أفكارها.. وتقلب لها من ماضيها صفحةً أخرى.. حيث تذكَّرت ذلك اليوم الذي أحدث في حياتها تحوُّلاً خطيراً.. لم يكن يخطر لها على بال.

استدعت الخادمة.. وأخذت تسألها.. والخادمة تجيب.. حتى سألتها: لماذا تعملين خادمة مع أنك تقرئين وتكتبين؟.. أثار السؤال شجون الخادمة.. فاهتزت نفسها وربَتْ حتى أصبحت وكأنها امرأة أخرى لا تمتُّ إلى الخادمة بصلة.. وقالت: لأنْ أعمل خادمةً هنا في هذا البلد الآمن المطمئن خيرٌ لي من المتاجرة بنفسي في مجتمعات لا تعرف من حقوق المرأة إلا أنها جسدٌ للَّذة.. ووسيلة للدعاية والإعلان.. لقد هربت من لهيب النفوس المريضة.. وآثرتُ أن أعمل خادمةً هنا.. واسترسلت الخادمة في حديث صادقٍ ممزوجٍ بالدموع..

والفتاة تستمع.. ومسارب قلبها تتفتح لحديث الخادمة الشائق.. كما تتفتح الأزهار لاستقبال ضوء الفجر كلَّ يوم جديد.. كانت دموع الفتاة تتوارى خلف نظراتٍ حائرة إلى تلك الخادمة التي أخذت تجري الكلمات على لسانها في انسيابٍ عجيب.. وكأن الله قد حباها لساناً آخر غير الذي كانت تنطق به.

هكذا مرَّ شريط الذكريات أمام عينيها، شريط سريع ولكنه مليءٌ بصورٍ متناقضة، أعادت لها جزءاً من حياة صاخبةٍ.. ولم تلبث أن عاودها الصمت مرةً أخرى، ولعلَّ ذكرياتها كانت ستنهال عليها من جديد، لولا أنها سمعت صوت أمها تناديها للخروج إلى بيت عمها.. وتحسست الفتاة عباءتها السوداء وجللت بها جسمها في ثقةٍ ويقين، وقامت إلى أمها وهي تقول: من خلف هذه العباءة.. ومن بين جدران هذا المنزل.. سأقدم لمجتمعي سواعد قويةً للبناء.. ثم نظرت إلى الكتاب الذي وقع ـ عند نهوضها ـ على الأرض.. وقلبت صفحته الأولى فوقعت عيناها على أول جملةٍ فيها.. ثم أطبقت الكتاب وهي تردِّد.. نعم.. وراء كل عظيم امرأة.. وراء كل عظيم امرأة..

*****

شهداء الأمة ... واستهلاك الكلمة

لاتزال كلمة الشهادة توزَّع توزيعاً «فوضوياً» في هذا الزمن.. فلان ينتحر فيقال بأنه شهيد.. بل يوضع في مقدمة الشهداء.. لأنه قد ضحى بنفسه، وأهدر دمَه من أجل قضية آمن بها.. علماً بأنَّ الانتحار هزيمة.. وتفريط في النفس لا يرضى به الله.

فلانة.. تموت فتسمَّى شهيدة الفن.. وتغدو كلمة «الشهادة» وساماً يعلِّقه من شاء على من شاء.

نحن هنا لا ندّعي أننا قادرون على تحديد مستحقي الشهادة وتعيينهم بين من يموت من الناس، فذلك أمرٌ ليس في أيدينا ولا في يد أحدٍ من البشر، ولكننا نود الإشارة إلى أن كلمة «الشهادة» كلمة عظيمة لها مدلولها العظيم، ولها حدودها التي أشار إليها القرآن الكريم وبيَّنها رسول الله ﷺ.

ثم إنَّ الشهادة بهذا المعنى السامي لا تتحقق إلا لمن آمن بالله تعالى حق الإيمان، وتمثَّل ذلك الإيمان في شؤون حياته كلها.. ومن هذا المنطلق فإنَّ استهلاك هذه الكلمة جديرٌ بوقفة متأملة منا.. لا لأننا نرفض استخدامها، ولكن لأنها تحتاج إلى وعي كامل بمدلولها الإسلامي الكبير.

الشهداء... من أعلى الناس مراتب يوم القيامة، هم أحياء عند ربهم يُرزقون ولكن من هم الشهداء ؟..

في عهد الرسول ﷺ سقط بعض الرجال في ميادين القتال فهنأهم الناس بالشهادة، ولكن رسول الله ﷺ نبه الناس إلى أن الأمر أبعد مرمًى مما يتصورونْ.. فلربما ظن الناس أن فلاناً قد مات شهيداً، بينما هو أبعد ما يكون عن الشهادة بمعناها الإسلامي.. في وادي القرى سقط خادمٌ لرسول الله ﷺ.. قتيلاً فقال الناس هنيئاً له الشهادة.. فقال ﷺ.. إن الشملة التي غلَّها من غنائم خيبر لتشتعل عليه ناراً.. وكانت الشملة لا تساوى قيمتها أكثر من ثلاثة دراهم. لا يعني ذلك أننا نسعى إلى تضييق واسعٍ أو تحطيم أملٍ في النفوس.. ولكننا نريد أن نحفظ لبعض المصطلحات الإسلامية ماء وجهها.. وأنْ نستخدم الكلمات في أماكنها.. والله أعلم بما تضمر النفوس.

*****

في ظل اليقين ... تتبدَّد المخاوف

١٤٠٦/١/٢٥هـ

على رسلك أيُّها الليل...

هذا الظلام الذي تلفُّ به الكون.. هذا السكون الذي تنشره على وديان قريتنا وجبالها.. هذه الرَّهبة التي تجلبها لنا بعد أن تنجح في طرد النَّهار وطمس معالمه.. هذا السهر الذي يُضنينا فيك.. هذا الأرق الذي يقف حاجزاً بين أجفاننا وبين لذَّة النعاس.. هذه الأفكار التي تتراكم.. هذه الأوهام التي تتداعى على النفوس السهارى كما تداعى الأكلة على قصعتها.. هذه الأشباح التي تستمد من ظلامك وسكونك وحشيّتها.

كلُّ هذه الجوانب بما فيها من صورةٍ معتمةٍ لا تستطيع أن تتخلَّل أو تتسلَّل إلى أعماقِ قلبٍ يستقرُّ فيه اليقين.

على رسلك أيها الليل.

اليقين شمعة تضيء جوانب النفس.. ولا تبالي بجبال الظلام التي تلقيها أنت على صدر هذا الكون الفسيح.

اليقين ـ أيها الليل ـ روضة يانعة الثمار، نديّةٌ طرية، لا يُخفي جمالَها ظلامُك.. ولا يستر روعتَها ثوبُك الأسود الطويل الفضفاض...

على رسلك أيها الليل..

إنَّ ظلامك وسكونك ورهبتك والأرق المعشِّش بين أهدابك، كل هذه الأشياء لا تستطيع أن تحجب عن عينيَّ وجه القمر.. ولا ضياء النجوم.. ذلك لأن اليقين الذي يستمد منه القلب قوَّته وصبره وثباته كفيلٌ بأن يفتح للعين نافذةً للنور من خلال جدار ظلامك.. تطلُّ على عالم الأمل والحبّ والوفاء.

بل إنك أحياناً تُسهم بدورٍ كبير في لحظات الصفاء التي يعيشها القلب...

عفواً أيها الليل.. ربما كان هذا دون علمٍ منك.. ولكنَّ ذلك ما يحدث حقيقةً.. نعم.. كم في حياة البشر من لحظات شقاء تتولَّد عنها لحظات صفاء.. وكم في حياتهم من لحظات صفاء تتولَّد عنها لحظات شقاء.. هذه من تلك.. وتلك من هذه.

ألا ترى أنّ القمر عندما يكون في قمَّة نشوته باكتماله يبدأ دبيب النقص في جسده المضيء؟. ثم ألا ترى أن القمر ـ أيضاً ـ عندما يكون في حضيض شعوره بالضعف، عندما

يغدو كالعرجون القديم.. يبدأ دبيب الاكتمال والنمو في جسده المضيء؟

سبحان الله العظيم!. ما أعجب هذه الحياة وما أغربها.. بل ما أعجب حياة الإنسان فيها وما أغربها!.

على رسلك أيها الليل..

ألا ترى أنَّك بكلِّ جبروتك وكبريائك تمنح هذا اليراع قوَّة تسيل من ريشته مع كل حرفٍ يكتبه.. بل إنك تمنحه عزماً على الكتابة من حيث تشعر أو لا تشعر.

أنا لا أنكر أنك تنتصر أحياناً على ضعف الإنسان.. ولكنه الانتصار الباهت الذي لا معنى له.. فما أظنَّك أيُّها الليل تفخر بأنك قد نجحت في تعذيب إنسان حزين النفس كاسف البال، إذْ جلبت إليه هموماً إلى همومه؛ بظلامك الدامس وسكونك الممضّ.. لا أظنك تفخر بهذا لأنه يمثل انتصارك على الضعيف، وهذا ـ والله ـ شرُّ انتصارٍ؛ إنَّ الهزيمة خير من هذا الانتصار.

تماماً كما أنَّ انتصار الإنسان على أخيه الإنسان في لحظة ضعفٍ لا يعني إلاَّ هزيمة المنتصر وإنْ بدا للناس أنه منتصر.

الانتصار الحقيقي هو ما يتحقق للقوي في مواجهة القوي، أو

ما يتحقق للصابر في مواجهة العنيد المكابر.

ألا ترى ـ أيها الليل ـ أنَّ انتصار اليهود على العرب والمسلمين في هذا العصر لا يشكِّل في نظر الحقيقة انتصاراً.

أتدرى لماذا؟ لأن تلك الفئة الضالَّة التي كتب الله عليها الذلّة والمسكنة.. لا تنتصر أبداً، ولكنها تستغل لحظات الضعف والانهيار والخلاف والفرقة التي تمرُّ بها أمتنا.. ومن هنا فإنها تنهزم وهي تنتصر.. ذلك لأن الضعيف في لحظات ضعفه يبحث عن عوامل قوته ليستعيدها.. ليقوى بها.. ليواجه بها.. وعند ذلك يكون قوياً، وحين يصير قوياً تتلاشى أمامه قوى الشرِّ التي كانت تستغلُّ ضعفه.

عفواً ـ أيها الليل ـ فلربما شطح القلم بنا قليلاً في هذا المنعطف.. ولكنها زوايا الكلام وجوانبه يفتح بعضها بعضاً.. ويتيح بعضها الفرصة لبعض.. إنَّ الكلمة.. تفتح مغاليق الأخرى.. حتى يرى القلم نفسه أحياناً في محيطٍ من الكلمات لا شاطئ له.

على رسلك أيها الليل..

فما أردت إرهاقك ولا إزهاق روحك، ولو فعلت ذلك لما ظلمتُ لأنك ترهقني أحياناً .. فيكون إرهاقي لك من باب

التقاضي.. ومن ذلك فإنَّ موقفي منك الليلة موقف الحبِّ والتقدير.. لأنك ـ كما ذكرت ـ تفتح أمامي أبواباً تسدُّها أمامي ضوضاء النَّهار ومشاغله وتبعات السعى في مناكب الدنيا.

أرأيت أيها الليل كيف اتسع الخرق على الراقع؟. وكيف أخذت الحروف تتمطَّى.. والكلمات تتوالد بطريقة عجيبة..؟ هوِّن عليك فسأحدُّ من هذا التوالد في الكلمات.. على طريقة «تحديد النسل» في المجتمعات البشرية؛ هذه البدعة الخبيثة التي يدعو إليها إنسان هذا العصر المسكين خوفاً من المجاعات.. ومن الانفجار السكَّاني.. إلى غير ذلك من الحجج الواهية.. أتدري لماذا يحدث هذا؟

إنه ضعف اليقين.. ضعف الصلة بخالق هذا الكون وبارئه.. الذي يخلق من عباده من يشاء.. ويكتب لكلِّ نفسٍ رزقها قبل أنْ تُوْلَد .. عفواً أيها الليل.. فهزائم إنسان هذا العصر كثيرة.. وجوانب ضياعه وحسرته متعدِّدة.. وكلها ناتجة عن ضعف «اليقين».. اليقين؟ نعم ـ والله ـ هذه الشمعة المضيئة أبداً.. هذه المركبة التي ينجو بها الإنسان من جبروت الطوفان.. وسطوة الأمواج.. نعم ـ أيها الليل ـ اليقين الذي جعل ربعيَّ بن عامر ـ رحمه الله ـ يقول لرستم قائد الفرس:

«جئنا لنخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.. ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

كلمات مُضيئات..

اليقين هو الذي أملاها.. ولسان ربعي هو الذي نطقها.. ومن هنا كانت دهشة رستم دهشة كبيرة وهو يرى هذا الرجل بثيابه المتواضعة يهزُّ عروش الفرس بهذه الكلمات.

ألم أقل لك ـ أيها الليل ـ بأنَّ اليقين قادرٌ على أنْ يحطِّم كلَّ جواجز الحياة وأوهامها؟

لا أدري لماذا أشعر الآن بأنني في حاجة إلى العودة إلى فقرة سبقت، ألا وهي موقف «اليهود» من أمتنا في هذا العصر..؟!

ربما كان ذلك لأن «اليقين» يشكِّل ما يشبه العمود الفقري لهذه القضية الكبرى..

أتظن «الدولة الصهيونية» كانت ستصل إلى ما وصلت إليه تجبُّراً واستكباراً لو أنَّ أمتنا لم تتنكَّب طريق «اليقين»؟.

كلاَّ والله... ما كان لدولةٍ نشأتْ في بلدٍ إسلامي عزيز أن

تسفي هذا الرماد في وجوهنا لو أننا سلكنا طريق اليقين...

وما أحسن قول القائل:

لستُ أشكو جور اللئيم، ولكنْ
كلّ ما أشتكيه ضعف الكريمِ

هذا جوهر القضية.

ومعرفة هذا الجوهر هي الخطوة الأولى إلى طريق النَّجاة.

على رسلك أيها الليل.

فإني أشعر بأجفانك تضعف.. وبقواك تخور.. وبوجهك وقد صار لوحةً من الشحوب والوجوم.. لماذا يا ترى..؟!

لقد فهمت أيها الليل..

إنني أرى بوادر الفجر تلوح، ولست تستطيع برغم قوَّتك وجبروتك أنْ تصمد أمامها.. أرأيت.. إنه درس عمليٌّ لما ذكرناه..

الفجر... هذا اليقين الذي لا يعرف الشك ولا المماراة، هو الذي يستطيع أن يبدِّد ظلامك الدَّامس.

وعلى هذا نقيس حالة أمتنا الإسلامية في عصرنا هذا.. لو أنها أيقنت وآمنت بمقوِّماتها الأساسية يقينَ وإيمانَ الفجر

بنوره لتبدَّد عنها ليل « الصهيونية»، ولتمزّق ستار الظلام «القاتل» الذي يسيطر على أقطارها.. أعني ظلام التفرُّق والخلاف والبعد عن منهج الله.

أيها الليل.. سبحان الله! أين كنت؟ لقد كنتَ ماثلاً أمامي ظلاماً دامساً، وسكوناً مخيِّماً إلاَّ من أزيز هذا القلم اللاَّهث؟

أين أنت أيُّها الليل؟..

وذهب سؤالي أدراج الرياح.. إلاَّ أنَّ ضياء الفجر كان جواباً شافياً كافياً.

أوَّاه.. متى يكون فجر اليقين في أمتنا الإسلامية جواباً شافياً كافياً؟.

سيكون ذلك قريباً إنْ شاء الله.

*****

هكذا يصنعون فماذا نصنع؟

١٤٠٦هـ

اللهم إنا نحمدك..

نقلِّب صفحات الصحف والمجلات التي تصدر في أنحاء العالم اليوم فنجد أخبار الرعب، وأنباء ظُلم الإنسان لأخيه الإنسان تطغى على كلِّ الأخبار.

تفرح عندما تقرأ خبراً عن اكتشاف علمي.. أو طبي.. يخدم البشرية، ولكن فرحتك تتلاشى أمام حزنك العاصف من جراء ما تقرأ من نبأ غارة تُشنُّ في بلدٍ على الأبرياء.. أو من خبر انفجارٍ تزهق فيه نفوس ليس لها من الأمر شيء.. أو من ظلمٍ واضطهادٍ يمارسه الأعداء على الأقليات المسلمة في أكثر من بلدٍ من بلدان هذا العالم المشهور.

فترى نفسك بين فرحةٍ عابرة وحزن غامر.

اللهم إنا نحمدك..

نسمع الأنباء فنطرب لنبأ ونسعد به.. وننقبض لأنباءٍ ونشقى بها.. ثم يقال بعد ذلك.. إنَّ عصرنا عصر رقي وتقدم.. عصر حضارة لا مثيل لها..!! عصر حريةٍ تجعل

الإنسان يفعل ما يشاء ـ وهذه هي مأساة عصرنا الكبرى..

وإذا أردنا أن نختصر على أنفسنا درب أحزانها لما ترى.. ورجعنا إلى جزءٍ من خارطة العالم.. «إلى العالم الإسلامي» فإننا سنجد أنفسنا أمام قضية يعيشها عالمنا، وخيوطها متصلة بقضايا العالم أجمع.. قتال دائر بين المنتمين إلى أرضٍ واحدةٍ ولغةٍ واحدة ومبدأٍ واحد.. سهمٌ مسموم مغروز، في خاصرة أمتنا في فلسطين.. مطرقةٌ ثقيلة تضرب المسلمين في أفغانستان، ومنجلٌ يحصد آمال الأطفال.. وسعادة الرجال وأمن النساء .. ثم تخرج من رحم هذه القضايا.. قضايا أصغر ولكنها أخطر.. ما تفرزه الحرورب من يُتمٍ وترميل وتشريد.. ينبت لنا أشواكاً مؤذية في طريقنا.

نشأت «قضية الأطفال» البراعم التي تفقد أمنها وراحتها في الحروب، والتي يستخدمها الأعداء سيفاً آخر لضرب الأمة في مستقبلها.. الأطفال الذين يُؤخذون إلى مدارس التبشير والمعاهد، بعد أنْ يفقدوا أهلهم في أتون الحرب.

الأطفال الذين يشكلون عقبةً أخرى تهون أمامها عقبات الكبار، أطفال أفغانستان.. كان ولا يزال يُؤخذ منهم عددٌ كبير لتربيهم الكنائس في أوروبا.. فيكسبهم عدونا ونخسرهم. ونحن صامتون.

أطفال لبنان يباعون سرًا على يد عصابةٍ يشرف عليها أحد القساوسة، وعالمهم الإسلامي غافلٌ عن ذلك..

وتكبر المأساة في لبنان على المسلمين خاصةً لأنَّ أطفالهم هم الذين يخضعون لتجارة الرقيق في عصر الحرية الزائفة. وقضية بيع أطفال المسلمين في لبنان أصبحت معروفة مشهورة بعد أن كشفها الله على يد أمٍّ فقدت ابنها، فبحثت عنه وألحَّت في البحث، حتى علمت وعلم معها العالم أجمع أنَّ عصابةً من تجار رقيق القرن العشرين قد اختطفوه ليبيعوه كما باعوا غيره في أوربا.. بل إنّ الأمر قد تجاوز ذلك إلى حدٍّ جعل بعض الأسر تضطر إلى بيع أطفالها خوفاً عليهم من الموت، وإلى أين يذهبون؟! إلى مدارس التبشير وغيرها من المؤسسات التي تقوم بغسيل جيد للمخ البشري، حتى يغدو الإنسان آلةً في أيدي أصحابها يصرِّفونه كيف يشاؤون، ويوجِّهونه أنَّى أرادوا.

والدول التي تحرص على الإفادة من مصائب الآخرين تحصل على نتائج طيبة في مجال التنمية الاقتصادية فيها.. ولكنها تخسر خسارةً كبيرة في مجال الإنسانية والاستقرار الاجتماعي والبناء الأسري.

في بلجيكا نشأ جيلٌ من أطفال فيتنام الذين ذهبوا ضحية الحرب الطاحنة التي أُهدرت فيها كرامة «أمريكا»، هذا الجيل الفيتنامي «الرقيق» هو الذي قامت على أكتافه المصانع والحقول في بلجيكا.. لكنه جيل ضائع إنسانياً واجتماعياً.. ولا يعرف له أسرةً تحقق له ما يتوق إليه من إشباع غريزة الانتماء الأسري التي فُطر عليها الإنسان.. وفي غير بلجيكا نشأت أجيالٌ على هذه الطريقة التي ينتجها عصر الحضارة والعلم والحرية .. هذه قضية.

أما القضية الأخرى التي تتعلق بنا ـ نحن المسلمين ـ فهي أشدُّ سوءاً، وأقسى أثراً ألا وهي هذا الإهمال المزري بمثل هذه الأمور التي تتعرض لها أمتنا... الهزيمة عند الأمة اليقظة تجر إلى النصر، وإلى إعداد النفس للمواجهة.. وهذا ما كان جديراً بأن تفعله أمتنا.. أما أن تستخذي وتتراجع.. وتهيّىء نفسها لضربات الأعداء في سكون وسكوت.. فهذا بلاءٌ لا يوازيه بلاء ذهبت أجزاء غالية من أرضنا الإسلامية فهل معنى ذلك أن نغض الطرف حتى تذهب أرضنا كلُّها؟ وهل معنى ذلك أن نغض الطرف عن المشكلات التي تنبثق عن مشكلتنا الكبرى؟ أطفال المسلمين.. الذين يولدون وينشؤون في ظلِّ الحروب الطاحنة وفي مخيَّمات اللاجئين.. ويفتحون أعينهم على وسائل الدمار، وقد جعلت من بيوتهم أطلالاً متهدِّمة،

ينادوننا بعيونٍ مكتظَّة بالدموع « أما من يدٍ حانية تنقذنا؟!» ويتلاشى نداؤهم ويضيع!..

إن المشكلة تتخذ حجماً كبيراً له خطورته، وله ما وراءه من أحداثٍ مؤلمةٍ ربما تأتي على أمتنا وتجعل منها مرتعاً لكل ناعق.

خبر وأيُّ خبر:

في مدينة زيورخ ـ كونا: احتفل أربعة عشر طفلاً فلسطينياً يتيماً بمرور سنة على وجودهم في تلك المدينة السويسرية بعيداً عن المذابح والاضطهاد.

ويعيش هؤلاء الأطفال الفلسطينيون في سويسرا بعد أن تم اختيارهم ليصبحوا من المقيمين في قرية «بستالوزي» للأطفال، وهي معهد « ـ خيري ـ!» أقيم قبل ثلاثين سنة للعناية بأطفالٍ فقدوا الأم والأب من أنحاء العالم، ويعيش الأطفال الفلسطينيون سوياً في منزل واحد بالقرية مع أربعة من الآباء والأمهات الرمزيين.

والفكرة الأساسية من إقامة القرية هي توفير جوٍّ الأمان الأسري لأطفالٍ من مختلف الجنسيات، أما مساكن القرية الأخرى فيقيم فيها أطفال لبنانيون وكمبوديون وأثيوبيون وفيتناميون.

وفي الوقت الذي يحاول فيه مسؤولو القرية إيجاد الظروف التي تسمح للأطفال بالاندماج في الحياة السويسرية، فإنهم يهتمون بضمان عدم نسيان هؤلاء الأطفال لقوميتهم وهويّتهم الثقافية، ولذلك فإن البيت الفلسطيني يحمل اسم القدس وسيصبح بإمكان الأطفال الفلسطينيين الأربعة عشر الذين تتراوح أعمارهم بين ثمان وأربعة عشر سنة حمل الجنسية السويسرية لدى بلوغهم سن الرشد، وقد تم اختيار الأطفال الفلسطينيين الأربعة عشر من مخيمات اللاجئين في جنوب لبنان .

هذا هو الخبر كما تناقلته بعض وكالات الأنباء، ولعل في كل كلمة من كلماته ما يُوحي بحقيقة الوضع في تلك الملاجئ والمدارس التي تسعى لفعل الخير حسب ما يزعم أصحابها.. ويظهر للقارئ تناقض واضح في الخبر السابق؛ فكيف يحرص القائمون على تلك القرية على أن يحتفظ الأطفال بقوميتهم في الوقت الذي تهدف تلك القرية الخيرية في سويسرا إلى دمجهم في المجتمع السويسري؟

وليس هذا هو المهم بالنسبة إلينا.. ولكن المهم هو هذا الإهمال المشاهد من دول العالم الإسلامي في هذا الجانب، وهذا التفريط منا في هؤلاء الأطفال الذين بإمكانهم أن يكوّنوا قوة عاملةً في مجالات متعددة من مجالات التنمية في عالمنا

الإسلامي، لو أننا أقمنا لهم جمعيات ومدارس خيرية في بلادنا الإسلامية الواسعة.

ولا أزال أذكر ذلك الطفل اللبناني «مصطفى» الذي نشرت له صورة في بعض الصحف قبل حوالي ثلاث سنوات مع أحد اللاعبين الإيطاليين المشهورين - وجاء في التعليق على الصورة ما يلي...« مصطفى طفلٌ لبناني فقد أسرته وأهله في لبنان فاحتضنته جمعية خيرية إيطالية وقد حققت له إحدى أمانيه وهي أن يلتقي اللاعب الإيطالي «.....»، وهذه الصورة تجمع بينهما وعلى ثغر الطفل ابتسامة الفرح - وسوف يتلقى مصطفى تعليمه في إحدى المدارس التبشيرية في إيطاليا».

إنها مأساة كبيرة، ومحنة عظيمة تمر بها الأمة الإسلامية في شتَّى ميادين الحياة.. والسبب واضح لكلِّ ذي عقل وبصيرة.. ألا وهو البعد عن المنهج الإسلامي.. مما أحدث في صفوف الأمة خلافاً وانشقاقاً بسبب اختلاف الميول والاتجاهات والأهداف.

وقفة إنسانية

أَدْنَيْتُ جلبابي على وجهي،

وألبستُ الخطا ثوب الحذَرْ..

ودنوتُ أغرس في نواحي الكوخ عيني..

ماذا رأيتُ؟

رأيت شيئاً كالخيال..

طفلاً يمصُّ أصابعَهُ،

وعلى يمين الطفل «رَكْوَةٌ»

والطفل يُوغل في البكاءْ،

الطفل طار إلى السماءْ..

ورجعتُ خاسرةً أسيرُ إلى الوراءْ..

والطفلُ طار إلى السماءْ.

*****

obeikandl.com

من الباحة إلى فلسطين وأفغانستان

١٤٠٩/٢/١٠هـ

لم تستطع جبال الباحة الشامخة الخضراء، ولا وديانها الخصبة، ولا نسيمها العليل، ولا لوزها وزيتونها وعنبها، ولا ريحانها وشيحها وكاديها، ولا ذكريات الطفولة الحلوة في مسقط رأسي « قرية عراء »، كل ذلك لم يستطع أن يصرف فكري عن التفكير في قضايا أمتي الإسلامية، وأن يصرف قلبي عن الإحساس بجراح أمتي على امتداد الوطن الإسلامي كله، وأنَّى له أن يصرفني ، وأنا أؤمن حق الإيمان أنَّ من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، وكيف لجبال الباحة أن تحجب عني رؤية العالم من حولي، وقد هيَّأت لي وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة أن أجوب الدنيا عرضاً وطولاً وأنا جالس في فناء منزلي المتواضع الذي تحتضنه تلك المزرعة الصغيرة في بني ظبيان.

كنت في لحظة من لحظات التفكير ألاحق بخيالي صور الماضي في مزرعتنا «الشعب»، فأرى جدي - رحمه الله - يحرث الأرض ويزرع، وأراني معه طفلاً يتفصَّد جبيني عرقاً وأنا أعمل.. أصرف الماء .. وأنقي الأحواض من الحصى

والشوائب.. وأشعر بنشوة عندما يهب النسيم البارد، فيجدد النشاط، خيالي يشاهد تلك الصور، وعيناي تتابعان التلفاز، فتريان العالم كلَّه.. خبرٌ يجيء من أمريكا عن الانتخابات القادمة، وخبر من روسيا.. عن خطط المستقبل لحكومة «الكرملين»، ومن أفغانستّان وفلسطين أخبار دماءٍ ودمار، ومن العراق أخبار عن انفراج أزمة حرب الخليج.. ومن طهران خبر عن قبول الصلح.. ومن باكستان خبر عن اغتيال ضياء الحق.. ومن لبنان متابعة بالصورة لقضية انتخاب الرئيس الجديد.. ومن السودان أخبار عن الفَيَضانات والهدم والغرق.. ويتوج ذلك كله خبر هجوم الجراد.

يارب عونك.. أين أنا الآن.. هل أنا ذلك الطفل السعيد الذي يعمل مع جده في المزرعة، وفي عينيه أمل مشرق، وفي قلبه طموح كبير؟ أم أنني هذا الرجل الذي تُبْحِرُ به مركبة العمر من شاطئ الثلاثين لتخوض به السنين القادمة وفي عينيه نظرة طويلة تمتد إلى المستقبل البعيد، وفي قلبه لوعةٌ وأسىً لما يراه من أهم أحداث هذا العالم الكئيب.

يا إلهي... كم بين هاتين الصورتين؟ صورة الطفل الراكض في دروب السعدة وصورة الرجل المثقل بالهموم؟ عشرون عاماً... نعم سنوات ليست كثيرة في مقياس الزمن، ولكنها

تحمل من متغيرات الحياة.. وظواهر التبدُّل والتطوُّر ما يجعلها كالقرون طولاً وامتداداً.

ذلك الطفل لم يكن يعرف التلفاز في قريته، ولا يقرأ صحف العالم، ولا يتابع كل ساعة ما يجري في الدنيا الفسيحة.. كان يسمع المذياع أحياناً ولا يطيل الاستماع إليه.. وكان يضحك ملء فمه يصطاد العصافير ويعرف أشكالها وألوانها وأصنافها، وكان يرى قريتَه الدنيا والدنيا قريته، يستأنس بأ هله.. ويسعد برفقاء طفولته.. ولم يكن يستوعب كل ما كان يحدِّثه به جده عن فلسطين والقدس، واليهود، وتفريق المسلمين... يرى الدموع تترقرق في عيني جده عندما يحدثه عن ضحايا الاحتلال الصهيوني في فلسطين فيحزن، ولكنه حزنٌ سريع يمر بقلبه دون أن يثبت فيه.

كم بين هذه الصورة وصورة رجل الثلاثين المثقل بالهموم؟. هذا الذي يرى اليوم كل شيء، يرى ضحايا الاحتلال الذين كان يسمع عنهم وهو صغير يراهم يضربون أمامه... تُدَقُّ رؤوسهم.. تُكسَّر عظامهم.. يُداسون بالأرجل كما يداس سقط المتاع.. يرى فلسطين.. قدسها وخليلها وحيفاها، يرى لبنان؛ جنوبها وشمالها وبيروتها.. يرى كل ذلك بعينيه ويسمع صراخ الأيتام.. وبكاء الثكالى.. وأنين الجرحى .. واستغاثات المستغيثين.

يا إلهي، يا مجيب دعاء المستغيثين.. ماذا ترى العين، وماذا تسمع الأُذن؟! هذه فاطمة.. امرأة فلسطينية تحمل رضيعها.. تضمه إلى صدرها.. يحتلُّ وجهها الغائم مساحة الشاشة الصغيرة أمام أعيننا وهي تصيح ونحن نسمع.. أغيثونا.. أنقذونا! ثم تشير إلى رضيعها وهي تقول: أطعمونا حتى أربي لكم هذا الصغير، ليكون فارساً من فرسان الأمة في المستقبل القريب.

يا رب عونك.. إني أرى فاطمة، أسمع صوتها.. أشاهد دموعها تتدفق «شلالاً» على خدِّها.. ويعتصر قلبي الألم.. وأبكي.. ثم يلطمني السؤال: ماذا ستصنع؟ هل ينقذ فاطمة بكاؤك؟ هل ينفعها انفعالك؟ ويزداد السؤال حدَّةً واحتراقاً: ماذا أ صابكم؟! المعتصم لم ير تلك التي استغاثت.. ولم يسمع صوتها، ولكنّه سمع الخبر وعرف القصة فكان منه ما كان.. وأنتم ترون وتسمعون فلماذا لا تتحركون؟

ويحك يا رجل الثلاثين المثقل بالهموم.. هذه الشاشة ذاتها تنقل إليك صوراً دامية من أفغانستان، ها أنت ترى القَتْلى وترى المجاهدين يكبرون ويهلّلون ينادون بنداء الإيمان كل قلب صادق اليقين.. ها هي طائرات العدو الغاشم تملأ سماءهم صخباً وضجيجاً، وها هي قنابل العدو ومدافعه تشعل نار

الموت لهم وهم صامدون، ترى كل ذلك.. وترى هذا المجاهد يسير وليس عليه إلا الأثواب البالية الممزقة.. وليس له حذاء تحمي قدميه من شوك الطريق وحصاها.. وترى آلاف اللاجئين تحضنهم باكستان.. يكاد يسحقهم الفقر والجوع والمرض.. كل ذلك تراه وتسمعه يا رجل الثلاثين المثقل بالهموم.. فماذا ستصنع؟ لا تقلق.. أنت في الباحة في هذا المصيف الجميل من مصايف بلادك الغالية ـ المملكة العربية السعودية ـ، ولكن في الوقت ذاته.. في فلسطين، في أفغانستان.. في العراق وإيران.. هذا قدرك يا رجل الثلاثين.

يا إلهي .. عشرون عاماً بين الصورتين.. صورة هذا الرجل وذلك الطفل، ولكنها أعوام مثقلة بالهموم.

عندما بلغ بي الألم منتهاه.. لجأت إلى كتاب الله.. وأسعدتني تلك الطمأنينة التي شاعت في نفسي وأنا أتصل بخالق الكون.. وهدأ قلبي قليلاً.. ثم تناولت عدداً من مجلة الجهاد.. وتصفحتها ويا لروعة ما رأيت. فهذا شهيد يكتب رسالة إلى أهله قبل استشهاده جاء فيها:

«لا تحزنوا عليَّ أنا مقبل على عملية كبيرة، فإذا اختارني الله لجواره، فاصبروا ولا تضيعوا الأجر بالجزع، نحن مقبلون على عملية العاصمة «كابل»، وما أدراكم ما «كابل»؟! آخر معقل

من معاقل النظام الشيوعي الغاشم في أفغانستان.. الأوضاع الداخلية في المدينة تشير إلى أن الرعب قد استولى على نفوس الظالمين.. كثر في المدينة السلب والنهب والسرقات التي يرتكبها الجنود 'لسوفيات، وكثير من أعضاء الحكومة الشيوعية يهرّبون الأموال إلى خارج البلاد.. النصر قريب - إن شاء الله - وموعدنا هناك، عند الذي لا تخفى عليه خافية».

يا لها من رسالة رائعة...

وأقول للقارئ الكريم.. إن موقف العدو الغاشم في أفغانستان أصبح مهزوزاً، فلا تقف متفرّجاً، شارك بمالك ودعائك.. وما النصر إلا من عند الله.

وأخيراً.. من الباحة إلى فلسطين، وأفغانستان.

جسرٌ من اليقين.. جسرٌ من الحب والوفاء.

*****

على خشبة المسرح

١٤٠٩/١/٢٥هـ

كانت المسرحية محكمة.. أدوارها موزعة بإتقان عجيب.. الممثلون أبدعوا في أداء الأدوار.. شيء واحد لم يتغيَّر على خشبة المسرح ألا وهو الأضواء.. كانت خافتة لا تسمح لنا برؤية الممثلين.. ولا بمعرفة سحنات وجوههم.. كانوا يتحركون على المسرح كالأشباح.. أما بطل المسرحية فكان أخفى على أبصارنا من نملةٍ سوداء، على .. صخرةٍ سوداء، في ليلةٍ ليلاء، ولكن المسرحية بالرغم من كلٍّ ذلك كانت شديدة الإحكام، لا خلل في أدائها، ولا نقص في جوانبها الفنية.. عفواً.. فهناك شيء آخر لم يتغير في المسرحية ألا وهو الضحية..شبحها كان ثابتاً نتابعه على المسرح وهو يتلقَّى الضربات تلو الضربات.. ويركل بالأرجل ركلاً.. ومن أعجب ما رأينا أن هذه الضحية كانت تضحك.. تضحك وهي تُضرب وتُركل!، وجمهور النظارة يضحكون معها ضحكاً فيه استغراب وتعجب، وفيه سخرية واستهزاء.

المسرحية كانت طويلة الفصول.. ولذلك فقد أشرف على إخراجها مخرجان عظيمان.. أحدهما من غرب الأرض..

والثاني من شرقها.. ومن عجائب أمور هذه المسرحية أن الإخراج كان فيها متناسقاً شديد التناسق، لا يظهر فيه اختلاف ولا تنافر.. وكان هذا عجيباً؛ لأن الذي نعرفه نحن النظارة أن المُخْرِجَيْن بعيدان كل البعد عن التوافق في الأفكار، فهما مختلفان أشدَّ الاختلاف في مشاربهما الفنية؛ أحدهما ينتمي إلى السريالية الفوضوية، والآخر إلى الواقعية الوصفية، ومع ذلك فقد أخرجا هذه المسرحية بتوافق عجيب.

والمسرحية عالمية النزعة لا تختص بشعبٍ دون شعب، ولا بمجتمع دون مجتمع، كما أنها متحررة من سيطرة المدارس المسرحية الشائعة فهي تستخدم الحوار ولا تستخدمه، وهي جامدة ومتحركة في آن واحد، وهنالك شيء آخر عجيب في هذه المسرحية "لا وهو بقاء ستائر المسرح فيها مسدلة، فالنظارة يلمحون شخوصها أو ـ على الأصح ـ أشباحها من وراء الستار، مع خفوت أضواء المسرح، وأعجب من ذلك أن الحضور أدركوا آخر الأمر أن للمسرحية بطلين وليس بطلاً واحداً، ويزيد العجب عندما يدرك الحضور أن المخرجين هما بطلا هذه المسرحية.. كما أن الحضور متاح لكل الناس مجاناً، فليس هناك تذاكر للدخول، ومن أعاجيب هذه المسرحية طول

مدة عرضها، فقد بدأ العرض منذ عشرات الأعوام وما يزال مستمراً، ولا يزال الإخراج محكماً، وما تزال الفصول تعرض بانتظام.

هل أصف لك فصلاً من فصول هذه المسرحية الكبيرة؟ قدِّر لي أن أنظر إليه من وراء الستار على أضواء المسرح الخافتة؟

هذا الفصل جرت أحداثه في زاوية من زوايا المسرح، ومن ميزات هذه المسرحية أن إجراء فصولها ينتقل من زاوية إلى أخرى.. اسم هذه الزاوية التي أجري فيها هذا الفصل من فصول المسرحية «جنيف»، نعم جنيف.. زاوية كبيرة اختارها المخرجان بمهارة، ووزَّعا الأدوار فيها بمهارة.. ونفذت الأدوار بمهارة.

عندما أشعلت الأضواء الخافتة جداً وقعت على أشلاء ممزقة ودماء تسيل، وكانت الحرب تدور، وقد برزت في جانب من جوانب المكان لوحة مكتوب عليها (أفغانستان).

وقد كان للمنظر أثر سيئ في نفوس الجمهور، ولكنَّ المخرجين أبدعا في تهدئة نفوس المشاهدين بما رسماه من خطة غامضة لإنهاء الحرب.. حيث أظلم المسرح، وانبعث

صوت يقول لا تقلقوا، سوف ينسحب المعتدي وتنتهي الحرب.. وصفَّق الحضور فرحاً وقد أرضاهم هذا التصريح، فصرفوا أذهانهم عن الحرب.. ومضت فترة صمت تلاها ضجيج عنيف وغبار كثيف.. ثم أعقبتها فترة صمت أخرى.. انبعث من خلالها صوت متهدِّج.. يقول انفجرت طائرة المسكين.. ودهش الحضور وأخذوا يتساءلون.. طائرة من؟ ثم حدَّقوا بأنظارهم عندما برزت لهم من جانب المسرح لوحة كبيرة عليها صورة «ضياء الحق».. ثم تلا ذلك وجوم رهيب.. أعقبه إعلانٌ من المخرجَيْن المبدعَيْن بنهاية هذا المشهد من الفصل.. ووعدا الحضور بإتمام المشاهد الأخرى في وقتٍ لاحق، أليست مسرحية عجيبة؟! ستقولون: بلى.. وربما تكون أعجب من خلال مشاهدها ،لقادمة، فسبحان الله!

*****